
الواقع و ينزع عن الحقيقة ألوانها الزائفة، لنراها بعيون مجرّدة
يستغرب البعض من موقفنا تجاه هذا الكتاب؛ كوننا من مدرسة
مدرسة " التتابع "؛ فكيف للمدرسة القديمة أن تقدّم ما هو
و نحن لا نتفق في بعض النقاط؛ بيد أنّ التطوّر أضحى حتميّة إذا
بنفسه و علم قائم بذاته، حتى إذا شرّفني الشيخ بالإشراف على
صفحته في " الفيسبوك "؛ غصّ في قلبي أن أرى لؤلؤا و لا أجمعه
بذلته الخاصّة؛ و يمكن أن يكون من المدرستين، ثم ما يمنع
و المكان.
قطب من أقطاب مدرسة " التتابع " يتحدث؛
الشيخ : محمد أمين الترمذي
شبكة سما العالمية
قضايا إنشادية
الجزء الأول
• تصميم و تنسيق الصفحات : عبد الرزاق أنفو. • تقديم : حمدون طه.
• مقاربة آيديولوجية : آسيا سعادة. • مراجعة و تدقيق : جهاز نبض الضوء للخدمات الإنشادية.
جويلية 2016
PDF
1 : 1

العنوان : قضايا إنشاديّة | الجزء 01.
بحث و تأليف : الشيخ " محمّد أمين الترمذي ".
تاريخ : جويلية 2016.
مقاربة آيديولوجيّة : آسيا سعادة.
تقديم : حمدون طه.
تصميم الغلاف و تنسيق الصفحات : عبد الرزاق أنفو.
مراجعة و تدقيق : جهاز نبض الضوء للخدمات الإنشاديّة.
رعاية إلكترونية : شبكة " سما " العالميّة.

هذا الكتاب : إذا تكلّم الجرّاح فعلى الجميع الإنصات إليه؛ هو يشرّح الواقع و ينزع عن الحقيقة ألوانها الزائفة، لنراها بعيون مجرّدة بعيدا عن التأويلات و التفسيرات المتناقضة، بل ربما يستغرب البعض من موقفنا تجاه هذا الكتاب كوننا من مدرسة " الاختصاص " و الكاتب كما ذكرنا قطب من أقطاب مدرسة " التتابع "؛ فكيف للمدرسة القديمة أن تقدّم ما هو أكاديمي؛ و هي المعروفة بمدانيتها ؟، نعم هذا صحيح؛ و نحن لا نتفق في بعض النقاط؛ بيد أنّ التطوّر أضحى حتميّة إذا كانت أمنيتنا جميعا الإرتقاء بفن الإنشاد كفنّ مستقل بنفسه و علم قائم بذاته، حتى إذا شرّفني الشيخ بالإشراف على كتابه هذا؛ الذي كان عبارة عن مقالات منشورة عبر صفحته في " الفيسبوك "؛ غصّ في قلبي أن أرى لؤلؤا و لا أجمعه للناسّ؛ و اللّؤلؤ جوهر نفيس يستوجب الغوّاص؛ و للغوّاص بذلته الخاصّة؛ و يمكن أن يكون من المدرستين، ثم ما يمنع التواصل بينهما ؟؛ إن هي إلاّ أفكار تتطوّر عبر الزمن و المكان.

توطئة :

قد يتعجّب من يقرأ هذا الكتاب إذا عرف أني لم ألتقي بالشّيخ " الترمذيّ " أبدا؛ رغم أنه كان حاضراً في مهرجان مدينة " سكيكدة "، كنت أسمع أناشيده مثل غيره من المنشدين الذين مثّلوا لنا رافداً جوهريّاً أمدّنا بالمادّة الحيّة؛ و مثل غيري من المهتمّين بالمجال؛ كان اسمه بما حواه من هيبة المقام يشكّل لنا مصدراً نأوي إليه حين نريد سماع إرث الماضي الجميل؛ الماضي الذي وصلنا عن طريق منشدين كبار لا يمكن بأيّة حال من الأحوال أن نهمل جهودهم و مساهماتهم في رفع مستوى الإنشاد؛ إعتماداً على وسائل تلك الفترة؛ و بما ساد فيها من أفكار و آيديولوجيّات.

هو شخص مهمّ جدّاً في العائلة الإنشاديّة، يبحث عن الحقيقة و له فيها ما يقول؛ تشفع له الأعوام التي قضاها في دروب الدّعوة الفنّيّة، كيف لا ؟؛ و هو قطب من أقطاب مدرسة " التّتابع " ؟؛ شيخ ترى على محيّاه نور الدّعوة و أبّهة العلم؛ ما زال محتفظاً بحيويّته و وسامته و كأنّه خرج منذ أمدٍ عن بُعد الزّمن؛ فصار لا يتأثّر بالسّنين أو بالأعوام؛ بل هو الذي يُعمل آثاره فيها بمشرط جرّاح متخرّج من جامعة عريقة.

و إذا تكلّم الجرّاح فعلى الجميع الإنصات إليه؛ هو يشرّح الواقع و ينزع عن الحقيقة ألوانها الزائفة، لنراها بعيون مجرّدة بعيداً عن التّأويلات و التّفسيرات المتناقضة، بل ربما يستغرب البعض من موقفنا تجاه هذا الكتاب كوننا من مدرسة " الإختصاص " و الكاتب كما ذكرنا قطب من أقطاب مدرسة " التتابع "؛ فكيف للمدرسة القديمة أن تقدّم ما هو أكاديمي؛ و هي المعروفة بمدانيّتها ؟، نعم هذا صحيح؛ و نحن لا نتفق في بعض النّقاط؛ بيد أنّ التطوّر أضحى حتميّة إذا كانت أمنيتنا جميعا الإرتقاء بفنّ الإنشاد كفنّ مستقل بنفسه و علم قائم بذاته، حتى إذا شرّفني الشيخ بالإشراف على كتابه هذا؛ الذي كان عبارة عن مقالات منثورة عبر صفحته في " الفيسبوك "؛ غصّ في قلبي أن أرى لؤلؤاً و لا أجمعه للناسّ؛ و اللّؤلؤ جوهر نفيس يستوجب الغوّاص؛ و للغوّاص بذلته الخاصّة؛ و يمكن أن يكون من المدرستين، ثم ما يمنع التواصل بينهما ؟؛ إن هي إلاّ أفكار تتطوّر عبر الزّمن و المكان.

و هل رأيتم تطوّراً نشأ من العدم ؟؛ يلغي ما قبله ممّا ظهر من أفكار تحت أيّة حجّة، و يبني كلّ شيء من جديد على أسس يزعم أنّها من عنده وحده ؟؛ كلّ ثورات العالم الفكريّة؛ التي يتشدّق فلاسفتها بأنّهم ثاروا على جميع القيم السّابقة؛ و أحدثوا انقلاباً جوهريّا؛ إنّما ارتقت - أحبّت ذلك أم كرهت - على الشّخصيّة القاعديّة للفرد أو للمجتمع في صور متعدّدة، فلا ينكر عاقل أنّ مدرسة " التتابع " هي الحضن الذي نشأت منه مدرسة " الإختصاص "، و نحن بهؤلاء الذين سبقونا إلى شرف الدّعوة، و ليس المتأخّر بأشرف من المبكر.

يقول الشّيخ " الترمذيّ " عن نفسه : " إذا تكلّم إنسان عن سيرته في الحياة، فليس معنى ذلك أنّه يتباهى أو يفتخر؛ إنّما يُراد من ذلك تسليط الضّوء على ذلك الطّريق الذي سلكه في سفره في رحلة الحياة؛ فلربما استفاد من ذلك السّائرون بعده، و أخذوا الدّروس و العبر؛ فكلّنا يولد جاهلاً ثمّ يتعلّم في كلّ يوم شيئاً جديدا؛ و كثيراً ما بحثت عن سير أشخاص معيّنين لأتعلّم من تجربتهم، فأحياناً أجد ما يُشفي الغليل، و أحياناً لا أجد؛ و اقتنيت لأجل ذلك كتباً كثيرة، أجد في قراءتها متعة و فوائد جمّة ".

مقدّمة :

أعوذ بالله من الشيطان الرّجيم، بسم الله الرّحمن الرّحيم و أصلّي و أسلّم على سيّدنا؛ و حبيبنا؛ و عظيمنا؛ و قائدنا؛ و شفيعنا " محمّد " الصّادق الوعد الأمين، فاللّهُمَّ لا علم إلاّ ما علّمتنا فعلّمنا ما ينفعنا؛ و انفعنا بما علّمتنا و زدنا علما.

اللّهُمَّ أخرجنا من ظلمات الجهل و الوهم إلى أنوار المعرفة و الفهم و العلم، و من وحول الشّهوات إلى جنّات القربات، أمّا بعد :

يروق لي كما أطيبُ نفساً؛ أن أضع بين أيديكم هذا؛ هو الجزء 01 من مؤلّف يُعنى بعالم الإنشاد و المنشدين، خصوصاً و أنّ الحقل الإعلاميّ و التأليفيّ في العالم العربيّ الإسلاميّ؛ لم يهتمّ كثيراً بمسألة التّوثيق و التأليف لهذا الفنّ الإسلاميّ الأصيل، الذي تتجلّى غايته السّامية في الدّعوة إلى الله و توحيده، و إلى الخير و إلى الذكر و إلى مدح النّبيّ عليه ألف صلاة و سلام، و كبادرة خير - و قد تكون الأولى من نوعها - من حيث أسلوب الطرح و الأفكار أيضا؛ جاء هذا المولود في شكل مقالات للشيخ المنشد " أمين الترمذيّ "، و الذي تكفّل بجمعها و تنقيحها و ترتيبها الأستاذ " عبد الرزاق أنفو " بعد إذن من الشيخ " الترمذيّ " حفظهما الله تعالى، الذي ما زال يحرص على إيصال خبراته و آرائه؛ حصاد تجاربه؛ في هذا المجال لشريحة أوسع من الإنشاديّين من خلال الكتاب، كما تفضّلت الأستاذة " آسيا سعادة " بوضع المقاربة الآيديولوجيّة بين المدرستين، مدرسة " التتابع " التي ينتمي إليها الشيخ؛ و مدرسة " الإختصاص " أو كما يعرفها البعض باسم آخر هو مدرسة " الأفكار " التي ينتمي إليها الأستاذ " عبد الرزاق "، و من معه.

بادرة خير أولى من نوعها لأنّها حاولت الجمع و التقريب بين مدرستين إنشاديّتين تحاول كلّ واحدة فرض نفسها في السّاحة، درءاً لكلّ فتنة قد تحدث مستقبلا.

سيغنيك هذا الكتاب عن الكثير؛ عن إهدار الوقت في التفكير فيما قد يلاقيك في بداياتك الإنشاديّة، و سيجيبك عن تساؤلات، بل سيريحك ممّا ينغص عليك كلّ تقدّم و حسن أداء، أو مواقف غير مرغوبة حصلت لك أو لفرقتك، فشعرت بانعدام الرّغبة في المواصلة و الإستمرار، فمن يمنحك تجربة التعامل معها بحكمة و تعقّل ؟، و القارئ المتمعّن لهذا العمل؛ سيلحظ أنّه يحوي حقائق يسردها صاحبها خلال مشواره الإنشاديّ، فهو يؤرّخ للإنشاد، و هذا ممّا - لا شكّ فيه - سيضيف فوائد كثيرة للقارئ، خصوصاً المبتدئين، كما سيشعر بلذة المطالعة و التصفّح، فما يكاد ينتهي من مقالة حتى يكتنفه التشويق لمتابعة قراءة ما يليها، فقط عليه التمعّن و التركيز، و ستكون الإستفادة بدرجة كبيرة.

سائلين الله تقبّل هذا العمل بأجر كامل غير منقوص؛ و ذاك مرادنا جميعا، مع تمنّياتنا القلبيّة الخالصة أن يكون من باب النيّة الموصلة لوجهه سبحانه، خدمةً للدّين الحنيف، و أن يعود الإنشاد إلى مساره الصّحيح الأصيل بأغراضه الكاملة و أهدافه الحقيقيّة، دون أن نعارض التطوّر المحمود الحاصل فيه وفقاً لما تتطلّبه التكنولوجيا الحديثة، و قوانين التطوّر الإجتماعيّ، فبارك الله لي و لكم في كلّ نيّة و عمل خيّر، و صلّ اللّهُمَّ و سلّم و زد و بارك على سيّدنا خير البشر.

حمدون طه . جويلية 2016

- 1 -

كثيراً ما أُسأل عن أمور في فنّ الإنشاد؛ من قبل أشخاص عاصروا هذا الفنّ قديماً و حديثا؛ يقولون لي : " إنّا نجد فرقاً كبيراً بين الإنشاد قديماً و حديثا، فأيّهما الأصحّ؛ و أيّهما الأجمل ؟ "، و يسأل غيرهم عن أمور أخرى كثيرة في هذا الفنّ؛ و أحياناً يكون هناك عدّة منشدين في مجلس واحد؛ و ربما كلّ واحد منهم ينتمي لمدرسة من مدارس الإنشاد؛ فيدور حوار بينهم في مثل هذه الأمور؛ فترى كلّ واحد منهم؛ يدافع عن المدرسة التي ينتمي إليها؛ لأنّها قد تكون حقّقت له الشّهرة و المال، و تُطرح قضايا كثيرة؛ و نحن المنشدون نعايش كثيراً من هذه التّناقضات؛ فيا ترى ما هو الجواب الشّافي عن مثل هذه الأمور و القضايا ؟؛ التي صارت تُطرح بكثرة في السّاحة الفنّيّة؛ و لا نجد من يتصدّى للإجابة عن مثل تلك الأسئلة الهامّة التي أصبحت هاجساً لدى الكثيرين ؟.

لقد رأيت لزاماً عليّ؛ أن أقول ما أعلمه في هذا المجال؛ و قد سبق لي أن ألّفت كتاباً في فنّ الإنشاد؛ تمّ طبعه مرّتين؛ تعرّضت فيه لبعض تلك القضايا؛ التي يُثار حولها الجدل، و لكن كثيراً من النّاس لم يطّلعوا على ذلك العمل؛ فرأيت أن أجعل من " الفيسبوك "؛ باعتباره إحدى الشبكات الإجتماعيّة الهامّة؛ وسيلة للوصول إلى الكثيرين؛ و للإجابة عن مثل تلك الأسئلة المطروحة؛ على شكل مقالات قبل أن تُجمع في هذا الكتاب، و يكون المجال مفتوحاً أيضا؛ لمن أراد أن يدلي بدلوه في هذا الشأن؛ و نحترم رأيه مهما كان؛ و تبقى مسألة أذواق و قناعات.

و كلمة " إنشاد " كلمة دخلت حديثاً على الغناء الدّينيّ؛ للتّفريق بينه و بين الغناء الدّنيويّ؛ أمّا أصل هذه الكلمة في اللّغة فمعناها رواية الشّعر؛ و إسماع القصائد للنّاس إلقاء دون تغنّ، و قد كان لكلّ شاعر قديماً راوٍ يروي له قصائده؛ تكون عنده موهبة في الإلقاء؛ ليطّلع النّاس على شعر ذلك الشّاعر، فهذا كان يُسمّى عندهم " منشدا ".

قال " المتنبّي " في هذا المعنى :

و ما الدّهر إلاّ من رواة قصائدي   إذا قلت شعرا أصبح الدّهر منشدا

- 2 -

لم يكن الإنشاد في عهد النّبيّ " محمّد " صلّى الله عليه و آله و سلّم كما هو عليه في يومنا هذا، إنّما كانت هناك أهازيج على طريقة غناء العرب، و قد جرت في حياة النّبيّ عليه الصّلاة و السّلام؛ بعض الحوادث و المناسبات التي أدّيت فيها مثل تلك الأهازيج؛ بما كان يشابه ألحان العرب و غنائهم.

من تلك المناسبات؛ لمّا هاجر النبيّ عليه الصّلاة و السّلام من " مكّة " إلى " المدينة "؛ و استُقبل بالنّشيد المعروف :

طلع البدر علينا من ثنيّات الوداع — وجب الشّكر علينا ما دعا لله داع

و هزج الصّحابة كذلك أثناء حفر الخندق :

اللّهُمَّ لولا أنت ما اهتدينا — و لا تصدّقنا و لا صلّينا

فأنزل سكينة علينا — و ثبّت الأقدام إن لاقينا

و هزجوا كذلك أو ارتجزوا؛ أي غنّوا من بحر " الرّجز "؛ و تفعيلته " مستفعلن " 6 مرّات على شطرتين :

لئن قعدنا و النّبيّ يعمل — فهذا منّا العمل المضلل

مرّة سأل النبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم السّيّدة " عائشة " : " أين كنت ؟ "؛ فقالت : " كنت في عرس للأنصار "؛ قال : " هل كان معكم من لهو ؟؛ فإنّ الأنصار يعجبهم اللّهو "؛ قالت : " و ماذا نقول يا رسول الله ؟ ".

قال قولي : " أتيناكم أتيناكم فحيّونا نحيّيكم؛ و لولا الحبّة السّمراء ما سمنت عذاريكم " ... إلخ؛ و قد رويت الحديث بالمعنى.

و مرّة جاءت امرأة إلى النّبيّ عليه الصّلاة و السّلام - و كان قد عاد من إحدى الغزوات - قالت : " لقد نذرت إن أعادك

الله إلينا سالما لأضربنّ فوق رأسك بالدّف "؛ قال : " وفِ بنذرك "؛ فضربت فوق رأسه بالدفّ.

و لو استقصينا الأحداث لوجدنا هناك المزيد و المزيد.

السّؤال الآن هو : كيف تطوّر النّشيد ؟؛ و كيف وصل إلى ما وصل إليه في عصرنا الحالي ؟.

بعد عصر الصّحابة رضي الله عنهم؛ و مجيء عصر التّابعين؛ إمتدّت رقعة الدّولة الإسلاميّة؛ و تمتّعت بالقوّة في كلّ شيء؛ شُغل أكثر النّاس بالدّنيا؛ و تغيّر الحال عمّا كان عليه في عهد النبيّ و الصّحابة، و انتبه لهذا الأمر العلماء الرّبانيّون، فقاموا يحثون النّاس على الرّجوع إلى الحال الأوّل الذي كانوا عليه من الصّلاح؛ و أنشؤوا لهم أماكن سمّوها " الزّوايا "؛ يقيمون فيها دروس العلم و الذكر؛ و تهذيب النّفوس و تزكيتها؛ عملاً بقوله تعالى : " قد أفلح من زكّاها "، أي هذّب نفسه و ربّاها على الأخلاق الفاضلة، و قد أثمرت هذه الجهود؛ و أبقت على روح الدّين سائدة و قائمة.

و كان أولئك القوم متزهّدين و متقشّفين؛ يلبسون الخشن من الثّياب؛ و كان من الصّوف بدل الحرير أو أيّ شيء آخر؛ لذلك أُطلق عليهم " الصّوفيّة ".

كان الشّيخ في تلك الزّاوية أو في هذا المسجد يقوم على تعليم النّاس؛ و تزكية نفوسهم، كما كان يتّخذ له " قوّالا "؛ أي " منشدا " في اصطلاح عصرنا، و كان ذلك القوّال يغنّي لهم من أشعار الزّهد؛ و التّذكير بالآخرة؛ و يذكّرهم بسيرة النّبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم؛ و أخلاقه و شمائله؛ و عبادته؛ و حبّه و انشغاله الدّائم بربّه عزّ و جلّ، إلى ما غير ذلك من هذه المعاني الرّوحيّة الوجدانيّة؛ التي قلّت مع اتّساع الفتوحات؛ و كثرة المال.

إذن نستطيع القول أنّ الإنشاد بدأ في زوايا و مجالس العلماء الرّبانيين؛ أهل التزكية و السّالكين إلى الله تعالى؛ بأشعار الزّهد و المحبّة لله عزّ و جلّ.

مقاربة آيديولوجيّة : يمكن تمييز 3 مدارس إنشاديّة في العصر القريب؛ " المدرسة التقليديّة " و هي التي غلبت عليها روح التصوّف؛ ظهرت بوضوح تامّ في القرن 20 و بالضبط في نصفه 1 و لكنّها كانت ممتدّة منذ القديم؛ و تعتبر الشريان الرّئيس لفنّ الإنشاد حيث تمثل ردّ الفعل المستمرّ من الذين يرفضون الإنغماس في ملذات الدّنيا؛ ثمّ " مدرسة التتابع " في النّصف 2 منه؛ و أخيرا " مدرسة الاختصاص " أو بما تُعرف عند البعض " مدرسة الأفكار " في هذا القرن، هذا دون إهمال " المدرسة البدائيّة " التي كانت في عصر الرّسول الكريم ثم بعده إلى أصحابه.

و لو توغلنا في الزمن أكثر إلى مرحلة ما بعد الخلفاء الراشدين؛ و لا سيما في مرحلة الخلافة الأمويّة؛ لوجدنا أنّ فن " التغريد " سار جنباً إلى جنب مع فنّ " الإنشاد "؛ ممّا يصعّب التفريق بينهما لدى أغلب الباحثين و المؤرّخين.

- 3 -

إذن؛ فقد نشأ الإنشاد في مجالس" الصّوفيّة " و زواياهم؛ و إليك بعض الوقائع.

قال " أبو عثمان النّيسابوريّ " : " أنشد قوّال بين يدي الحارث المحاسبيّ هذه الأبيات :

أنا في الغربة أبكي ما بكت عين غريب
لم أكن يوم خروجي من بلادي بمصيب
عجبا لي و لتركي وطنا فيه حبيبي

فقام يتواجد و يبكي؛ حتى رحمه كلّ من حضره ".

و لمّا ورد " ذو النّون المصريّ " بغداد؛ جاءه قوم من الصّوفيّة بقوّال؛ و طلبوا منه أن يأذن له بأن يقول؛ فأذن له؛ فأنشد :

صغير هواك عذّبني فكيف به إذا احتنكا ؟
و أنت جمعت في قلبي هوى قد كان مشتركا
أما ترثي لمكتئب إذا ضحك الخليّ بكى ؟

فقام " ذو النّون " و سقط على وجهه.

و الأمثلة على هذا كثيرة؛ تثبت أنّ الإنشاد نما و ترعرع في مجالس و زوايا الصّوفيّة؛ و أنّ المنشد عندهم؛ كان يسمّى " قوّالا "، و نستشفّ من تلك الوقائع و المناسبات أنّ فنّ الإنشاد في زمن التّابعين؛ و تابعي التّابعين و من بعدهم؛ كان فنّا بسيطاً و بدائيّا؛ مقارنة بما كان عليه الغناء من تقدّم و تطوّر و قوّة؛ خاصّة أيّام الدّولة العبّاسيّة؛ على يد الموسيقار " إبراهيم الموصليّ "، و ابنه " إسحاق الموصلي "، و تلميذه " زرياب " و اسمه الحقيقيّ " عليّ بن نافع "، الذي رحل إلى

الأندلس؛ " إسبانيا " الآن التي كان يحكمها الأمويّون آنذاك؛ فقام بنهضة موسيقيّة هائلة هناك؛ بدعم حكوميّ؛ و أنشأ مدرسة لتعليم العزف على الآلات الموسيقيّة؛ و غناء الموشّحات؛ التي وُلدت في الأندلس؛ فسمّيت " موشّحات أندلسيّة ".

ذكر لنا التّاريخ أسماء مئات من المغنّين و المغنّيات؛ الذين كانوا في العصر الجاهليّ؛ في " مكّة " و في " المدينة "؛ ثمّ في " دمشق " أيّام الأمويّين؛ ثمّ في " بغداد " أيّام العبّاسيّين، و يضيق المجال عن حصر أسمائهم؛ و عن حصر أغانيهم؛ التي امتلأ بها كتاب " الأغاني " الضّخم؛ لمؤلّفه " أبي الفرج الأصفهانيّ "، بينما لم يذكر لنا التّاريخ أيّ اسم لمنشد دينيّ؛ إلاّ في العصور المتأخّرة جدّا؛ ذلك لأنّ الإنشاد كان محصوراً في مجالس و زوايا الصّوفيّة؛ و كان على نطاق ضيّق؛ و بإمكانات بسيطة؛ و فنيّات متواضعة؛ إلى أن جاء العصر " الفاطميّ "؛ و ابتدع الفاطميّون أو قُل سنّوا الإحتفال بالمولد النّبويّ الشّريف؛ الذي ما زال قائماً إلى يومنا هذا؛ و كانت تقام السّرادقات الملكيّة الضخمة؛ في مدينة " القاهرة "؛ و سائر المدن الخاضعة لسلطتهم؛ تقام الزّينات؛ و تسرج القناديل ليلاً - لأنه لم يكن وقتها كهرباء - و يحضر الخليفة و جميع رجال الدّولة؛ و جميع العلماء و أعيان البلد؛ للإحتفال بذكرى مولد النبيّ " محمّد " صلى الله عليه و آله و سلّم.

يبدأ الحفل بتلاوات مباركات لأشهر قرّاء القرآن الكريم؛ ثم مدائح للمنشدين و للمادحين؛ ثم مواعظ للعلماء عن مولده و سيرته و شمائله عليه الصّلاة و السّلام، ثمّ يقدّم الطّعام لعامّة النّاس الذين حضروا هذا الإحتفال الضّخم جدّا؛ و تقدّم الحلوى أيضا.

تستمرّ هذه الإحتفالات طيلة شهر ربيع الأوّل، و نستطيع أن نقول أنّ الإنشاد الحقيقيّ قد خرج للعلن؛ و لعامّة النّاس؛ و بدأ بالقوّة و التطوّر إبتداء من العصر " الفاطميّ " [1] و حتى الآن؛ و قبل ذلك كان متقوقعاً في زوايا و تكايا الصّوفيّة؛ على نطاق ضيّق.

---

(1) : مع كلّ التحفظ أثناء هذه الفترة التاريخية فيما يخص باقي الأقاليم الإسلاميّة في العالم مثل الهند و الصين، نظراً لتداخل فن الإنشاد مع فن التغريد.

- 4 -

زاد الإهتمام بالإنشاد الدّينيّ؛ إبتداء من العهد " الفاطميّ " الذي كان مركزه " مصر "؛ و كان الفاطميّون أوّل من سنّ سنّة الاحتفال بذكرى مولد النّبيّ " محمّد " صلّى الله عليه و آله و سلّم؛ و كانت تقيمه الدّولة و ترعاه؛ مغدقة الأموال على القرّاء و المدّاحين؛ الذين صاروا يهتمّون بتحسين الأداء في التّجويد و في النّشيد، و صار الإنشاد يحاكي ألوان الغناء؛ بجعل قوالبه و أشكاله على نسق الغناء الدّنيويّ؛ الذي هو أعمق جذوراً في التّاريخ و في الزّمن، و لا سبيل أمام القرّاء أو المادحين؛ إلاّ الأخذ عن أساطين الغناء و العازفين؛ لتعلّم المقامات و الأوزان الموسيقيّة؛ و معرفة الأبعاد في السلّم الموسيقيّ، و ذلك لأنّ الإنشاد ما عاد مقتصراً على مجالس الصّوفيّة؛ بل أصبح شائعاً عند كلّ الناس؛ مُروياً ذلك التعطّش و الحبّ في قلوب المسلمين؛ تجاه نبيّهم عليه أفضل الصّلاة و السّلام؛ لذلك كثر المنشدون و القرّاء؛ فصاروا يقلّدون المغنين في طرق غنائهم؛ و قوالب ألحانهم؛ كالقصائد مثلاً و الموّالات؛ ثمّ أشكال الموشّحات؛ و الأناشيد الخفيفة؛ و التي كانت مقامة على قالب " الطقطوقة "، و التي كانت تسمّى في مدينة " حلب " باسم " القدود الحلبيّة "؛ و ظهرت أصوات جميلة و رائعة عند المنشدين و القرّاء؛ إذ أصبحوا لا يقلّون عن المطربين في جودة و قوّة الأداء؛ و ربما تفوّقوا عليهم في كثير من الأحيان.

كان الفارق بين المطربين و المنشدين في اختلاف الكلمة أو النصّ الشّعريّ، و كان أولئك المنشدون يأخذون قصائدهم من شعراء عصرهم كالشاعر" البُصيريّ "؛ " صفيّ الدّين الحليّ "؛ " عمر بن الفارض "؛ " إبن عربيّ "؛ " الششتريّ "؛ " شمس الدّين النواجيّ "؛ " عبد الغنيّ النّابلسيّ "؛ و كثير غيرهم ممّا يضيق المجال عن حصرهم.

أحيانا تجد منشداً يؤدّي الغناء الدّنيويّ و الإنشاد الدّينيّ على حدّ سواء؛ و بمصاحبة آلات العزف الموسيقيّة أو دونها.

قد عاصرت عدداً من هؤلاء؛ حتّى أنّ الشّيخ " علي محمود المصريّ " كان قارئاً و مطرباً و مدّاحاً " منشداً " في نفس الوقت؛ و غيره كثير.

- 5 -

بعد العهد " الفاطميّ " جاء العهد " الأيّوبيّ "؛ فبقيت سنّة الإحتفال بذكرى مولد النّبيّ " محمّد " صلّى الله عليه و آله و سلّم قائمة؛ تحت رعاية الدّولة؛ و بمبادرات من النّاس؛ في البيوت و في المساجد؛ يعبّرون من خلالها عن حبّهم و شوقهم لنبيّهم عليه الصّلاة و السّلام، و الإنشاد و التّجويد يتطوّران في الأداء الفنيّ؛ و صار للمنشدين و القرّاء؛ طرقاً و أساليبا في الأداء راقية جدّاً و متمكّنة، و بعد انتهاء العهد " الأيّوبيّ "؛ جاء العهد " المملوكيّ "؛ ثمّ العهد " العثمانيّ "، و جميع هذه الدّول كانت تهتمّ بإقامة الإحتفالات بذكرى مولد النّبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم؛ و الإنشاد و التّجويد يتطوّران.

و نشط الشّعراء في نظم قصائد فخمة؛ تتحدّث عن مولده عليه الصّلاة و السّلام؛ و عن سيرته العطرة؛ و شمائله الكريمة؛ و لم تترك صغيرة أو كبيرة تتعلّق به عليه الصّلاة و السّلام إلاّ ذكرته و فصّلت فيه، و قد جمع الشّيخ " يوسف النّبهانيّ " - رحمه الله - طرفاً يسيراً من تلك القصائد و الأشعار؛ ملأت 4 مجلّدات ضخمة؛ سمّاها " المجموعة النّبهانيّة "؛ هي قصائد قيّمة جدّاً تفيد المنشدين و المادحين؛ و هي متوفّرة في المكتبات.

لو استقصينا و أحصينا كلّ ما قيل في مدح النّبيّ " محمّد " صلّى الله عليه و آله و سلّم؛ من عصره إلى عصرنا لبلغ مئات و ربما آلاف المجلّدات، و هذا مصداق قول الله تعالى فيه : " و رفعنا لك ذكرك "، و لم يقتصر الأمر على شعراء الفصحى فحسب؛ بل تعدّاه إلى شعراء العاميّة كذلك " الزجّالين "؛ الذين نظموا كثيراً من الأزجال الرّائعة، و نشط كثير من الملحّنين؛ في تلحين تلك القصائد الفصيحة؛ و الأزجال العاميّة؛ كلّ بلد حسب لهجته؛ و لغته الدّارجة.

و نشط كذلك عدد من العلماء؛ في عمل ما يسمّى " قصّة المولد " إمّا نثرا؛ - و يكون فيه الكلام مسجوعا - و إمّا نظماً على شكل قصائد، و كثرت هذه الموالد جدّا؛ و كان يبدأ بها المنشد بعد تلاوة القرآن الكريم عادة؛ على طريقة القصيدة المرتجلة؛ و يقوم الحضور بعد كلّ مقطع؛ بالصّلاة على النّبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم؛ بشكل جماعيّ و جهريّ؛ إلى أن ينتهي ذلك " المولد " كما في بعض البلاد، أمّا في بعضها الآخر؛ فيُكتفى بذكر طرف من ذلك المولد؛ ثمّ يكون معظم التّركيز على الأداء الجماعيّ و الفرديّ.

ـ 6 ـ

بعد انتهاء العصر " العثمانيّ " - بالنسبة للبلاد العربيّة - تابع الإنشاد مسيرته؛ كان للمنشد في " مصر " مصطلحاً آخر؛ يسمّى " الصيّيت "؛ كنت أسمع من كبار السّنّ عندنا في مدينة " حلب " يسمّونه " الصّويت "؛ على مستوى العامّة من النّاس، أمّا بين أهل الفنّ فهو " المنشد ".

و بدأنا نسمع أو نقرأ عن منشدين؛ عاشوا و اشتهروا في القرنين 19 و 20؛ عمّروا السّاحة الفنيّة بأعمالهم الكبيرة و ألحانهم؛ التي حفظها النّاس جيلاً عن جيل، و دُوّن الكثير من تلك الأعمال في كتب الموسيقى؛ أو في كتب خُصّصت للنّشيد، و ابتدأ ظهور " الحاكي " أو " الفونوغراف " في أواخر القرن 19؛ و كان عبارة عن جهاز له نابض " زمبرك " يعبّأ باليد و توضع عليه أسطوانة من الشّمع؛ يكون عليها تسجيل صوتيّ لأحد المطربين أو القرّاء أو المنشدين، و يتّصل بالجهاز بوق كبير يخرج منه الصّوت؛ و كلّما أرادوا سماع ذلك التّسجيل؛ يعبّؤون النّابض و يضعون الأسطوانة في مكانها المخصّص؛ و يضعون الإبرة على الأسطوانة؛ فتنقل الصّوت من هذه الأخيرة إلى البوق؛ إلى سمع المستمع.

ثم ابتكروا أسطوانة مسطّحة أفقيّة على شكل قرص أسود؛ و كان هذا في عصرهم يُعتبر إنجازاً تكنولوجيّا؛ لقد قيّدوا ذلك الصّوت و وثّقوه؛ فحفظوه من الضّياع؛ بعد أن كان قديماً يضيع و يتلاشى.

قبل هذا الإنجاز الصّوتيّ؛ كان قبله إنجاز مرئيّ مهمّ جدّا؛ حينما استطاعوا تقييد صور الأشياء؛ و ذلك عندما اخترعوا " الكاميرا "؛ لقد حفظوا لنا صور كثير من الأشخاص و المدن ... إلخ، كما شهدت السّاحة الفنيّة الغنائيّة في القرن 18 و القرن 19؛ ظهور قوالب غنائيّة و موسيقيّة " آليّة " إبّان العصر " العثمانيّ "؛ أمثال : " البشرف "؛ " السّماعيّ "؛ " التّحميلة "؛ " الدّولاب "؛ " اللّونغا "؛ و ظهر قالب غنائيّ مهمّ جدّاً هو " الدّور "، ثمّ ظهر قالب غنائيّ آخر هو " المونولوج ".

بعد تدشين و فتح قناة " السّويس " و توافد الفِرق الموسيقيّة الأوروبيّة على " مصر "؛ دخلت قوالب أخرى متنوّعة أمثال : " الأوبرا "؛ " الأوبريت "؛ " الدّيالوج "، و بدأت نهضة فنّيّة كبيرة؛ كان مركزها " مصر "؛ التي استفادت كثيراً من

الفنّ التركيّ؛ ثمّ من الفنّ الأوروبيّ؛ و خاصّة الإيطاليّ؛ و استطاع كثير من الملحّنين المزج بين هذه المدارس الفنيّة المتعدّدة و غيرها؛ كالتركيّة و الأوروبيّة و العربيّة؛ أمثال : " سلامة حجازي "؛ " سيّد درويش " فتلميذه " محمّد عبد الوهّاب "؛ " محمّد القصبجي "؛ ... إلخ.

ذكرت هذه الأشياء مع أنّها بعيدة عن موضوعنا الذي هو الإنشاد؛ إلاّ أنّ لها تأثيراً قويّاً على تطوّره، إذ كان المنشدون يسمعون هذه الأعمال و الألوان الغنائيّة؛ و يتأثرون بها؛ تختزنها ذاكراتهم فيحاكونها و يقلّدونها؛ في أدائهم أو في ألحانهم؛ عن قصد أو عن غير قصد.

بذلك تطوّر الإنشاد و تعدّدت ألوانه وفقا لثقافة عصره؛ و دخلت عليه قوالب جديدة؛ منها ما يشبه " المونولوج "؛ منها ما يشبه " الدّور "؛ و لكن دون موسيقى؛ كذلك أصبح لبعض الأناشيد التي هي على قالب " الطّقطوقة "؛ في كلّ غصن من أغصانها أو في كلّ مقطع من مقاطعها لحناً مستقلاّ عن المقطع الآخر، و هذا من ابتكار الموسيقار " زكريّا أحمد ".

كما أصبحت بعض الألحان الدّينيّة مزيجاً من قالب " الطّقطوقة " و قالب " الموشّح ".

الحقيقة أنّ القرن 19 و القرن 20 شهدا تطوّراً هائلاً جدّاً على مستويات مثل : العزف و التلحين و الغناء؛ النّشيد و التّجويد؛ و حتى على مستوى الشّعر؛ و كلمات الأناشيد و كثير من كلمات الأغاني؛ ما يفوق الوصف؛ و يخلب الألباب؛ فيُدهش العقول.

أمّا الآن في القرن 21؛ فنحن نشهد انحداراً هائلا؛ و إسفافاً شديداً على كلّ المستويات و الأصعدة؛ رغم التقدّم التّكنولوجيّ الكبير، إلاّ ما رحم الله.

مقاربة آيديولوجيّة : يمثل العصر " الفاطميّ " الفترة الذهبيّة لفنّ الإنشاد لما بذلته الدّولة آنذاك من اهتمام كبير جدّا؛ حيث أُخرج من بوتقة الإهمال و أعطته مركزه الصّحّي في المجتمع؛ غير أنه خرج عن مقصده عبر الزمن و المكان ليتحوّل إلى طقوس شركيّة و بدع، و هذا يُعتبر شيئاً عادياً إذا تخلّى العلماء و الفلاسفة و المفكرّون عنه ليكون عند البسطاء من الناس؛ فتتسطّح أفكارهم؛ و يتدخل المجتمع 4؛ طبقاً لما يسمّى في الفكر الإنشاديّ الحديث " معادلة 4 × 1 ".

- 7 -

كما ذكرنا سابقا؛ كانت هناك نهضة فنيّة كبيرة؛ على مستوى الإنشاد و المديح؛ و على مستوى التّجويد؛ و على مستوى الغناء و العزف و التّلحين و كتابة النّصوص الشّعريّة.

كان مركز الثّقل " مصر " بصفة خاصّة و أساسيّة؛ و في بعض البلاد العربيّة عامّة؛ أمثال : " العراق "؛ و دول المغرب العربيّ؛ و " سورية " - أقصد بلاد الشّام - ؛ في القرنين 19 و 20.

لقد ظهر عمالقة في كلّ تلك المجالات؛ منهم على سبيل المثال : " عثمان الموصليّ " المعروف باسم " الطحّان " في العراق؛ " مصطفى الحريريّ " المعروف باسم " البشنك " في مدينة " حلب "؛ " عبدو الحمولي "؛ و " المسلوب "؛ و " الصّفتي "؛ " المنيلاويّ "؛ و " سلامة حجازي "؛ و " علي محمود "؛ " إسماعيل سكّر "؛ " درويش الحريريّ "؛ و " سيّد درويش "؛ و " زكريّا أحمد "؛ و " محمّد رفعت "؛ و أسماء لا حصر لها في " مصر ".

كثير ممّن ذكرت؛ و ممّن لم أذكر؛ كانوا متعدّدي المواهب؛ من إنشاد أو غناء أو تجويد أو تلحين؛ أو كتابة نصوص شعريّة مثل " عثمان الموصليّ ".

لو أردنا أن نحصي أسماء المبدعين في الأقاليم العربيّة؛ في المجالات التي ذكرناها لاحتجنا إلى صفحات كثيرة جدّا، و كان كثير من فنّ غنائنا و فنّ إنشادنا متأثّراً باللّون و بالأسلوب العثمانيّ التركيّ؛ لأنّ العثمانيّين حكموا معظم الأنحاء العربيّة لمدّة 4 قرون؛ و دخلت بعض الكلمات التركيّة في بعض الألحان؛ و خاصّة الموشّحات الغزليّة مثل " جانم "؛ " أمان يا للّي "؛ " عمرم "؛ " أفندم "؛ " جق سيلمه ".

يُقال أنّ الذي نقل الطّريقة التركيّة إلى الطريقة المصريّة هو المبدع " عبدو الحمولي "؛ و أنّ الذي نقل فنّ " الموشّح " إلى " مصر " هو الوشّاح " شاكر أفندي الحلبيّ "؛ و من بعده الوشّاح " أبو خليل القبّاني الدّمشقيّ ".

على يدي هذين العملاقين انتشر قالب " الموشح " في " مصر "؛ فقوي و اشتدّ عوده؛ و أكمل مسيرته عباقرة أفذاذ أمثال : " محمد عثمان "؛ " سيّد درويش "؛ " درويش الحريريّ "؛ " كامل الخلعيّ "؛ " زكريّا أحمد "؛ " داود حسني "؛ و غيرهم.

- 8 -

وصل فنّ الإنشاد و الغناء و متعلّقاتهما؛ و كذلك فنّ أداء القرآن تجويدا؛ في القرن 19؛ و في القرن 20 إلى القمّة.

كانت الأصوات التي تؤدّي ذلك أصواتاً جميلة؛ و قويّة؛ و ذات مساحة كبيرة، لم يكن في ذلك الوقت كهرباء؛ يعني أنّه لا توجد " ميكروفونات "، و لا يمكن لأيّ أحد أن يلج تلك المجالات؛ إلاّ إذا كان يملك الصّوت الجميل الجهوريّ؛ لكي يستطيع أن يُسمع الجمهور الكبير الذي يحضر للإستماع و الإستمتاع؛ و قد يبلغ ذلك الجمهور الآلاف في بعض الأحيان، و قد دخلت الكهرباء " مصر " في بدايات القرن 20؛ و تبع ذلك دخول " الميكروفون "؛ فأقبل على استعماله المغنون؛ مثل القرّاء و المنشدون؛ و بذلك قلّ جهدهم و تعبهم أثناء الحفلات التي كثيراً ما تمتدّ إلى الفجر.

لقد فرحوا كثيراً بهذه النّعمة التي أراحتهم كثيرا.

يُروى أنّ المطربة المصريّة " أمّ كلثوم "؛ لمّا وضعوا لها " الميكروفون " لتستعمله في غنائها؛ طرحته أرضا و لم ترضَ استعماله، و كأنّ لسان حالها يقول : " هذا لأرباب الأصوات الهزيلة الضّعيفة؛ و ليس لصوت كصوتي "، و لكنّها بعد ذلك استعملته تبعاً لمستجدّات العصر.

و تجدر الإشارة إلى أنّ الأجواء في تلك الأزمنة؛ كانت أجواء ساكنة و هادئة جدّا؛ خاصّة في اللّيل؛ فلا يوجد ضجيج سيّارات؛ و لا هدير مصانع؛ و لا أصوات الأعيرة النّاريّة؛ و لا المفرقعات الملوّنة و المدوّية؛ التي نُبتلى بها الآن في كلّ مناسبة و عرس.

ذلك الهدوء و حسن إصغاء النّاس كان يساعد المؤدّي كثيراً جدّا في أدائه؛ و كان السّميعة يتفاعلون و يتجاوبون مع معاني الكلام الذي يسمعون؛ و مع الصّوت و المقامات و الجمل اللّحنيّة و القفلات النّاريّة " الحرّاقة " التي يقفل بها المؤدّي سحاباته المتموّجة و الملوّنة بشتّى المقامات؛ و قلت المؤدّي لأنه قد يكون منشداً أو قارئاً أو مغنّيا.

كان جمهور السّميعة الذوّاق؛ الذي تربّت أذنه على الشّيء الرّاقي و الجميل؛ يتفاعل و يتجاوب جدّا مع ذلك الأداء؛ مطلقا عبارات الإستحسان و الإعجاب و الإبتهاج؛ بما يسمع من ذلك الأداء المبهر و المدهش.

ذلك كان الجوّ السّائد بين المؤدّي و سمّيعته؛ و كأنهم جسم واحد من الإنسجام و التّناسق؛ و هذا ممّا يفتح باب الإبداع و الإجادة و الإبهار عند المؤدّي؛ فلا يشعر بأيّة غربة عن جمهوره؛ أو بأيّة فجوة بينه و بين سمّيعته.

نظم أمير الشّعراء " أحمد شوقي " قصيدة طويلة؛ يذكر فيها روعة أداء و صوت " عبدو الحمولي "؛ الذي عاش في القاهرة في القرن 19؛ أيّام الحكم الملكيّ؛ أذكر من تلك القصيدة بيتاً واحداً هو محلّ الشّاهد : " يخرج المالكين عن حشمة الملك و يُنسي الوقور ذكر وقاره ".

أي أنّ " الحموليّ " عندما يغنّي لا يستطيع الملِك الذي يستمع إليه؛ و لا الوقور المحتشم؛ أن يبقى ثابتاً و صامدا؛ بل يصيح : " الله " من شدّة التأثّر؛ أو يقول : " يا سلام " من قوّة الطّرب؛ أو يهتزّ و يتمايل من غلبة الوجد.

هكذا كان حال المؤدّين و المستمعين في تلك الأزمنة؛ التي ربما نظر إليها البعض على أنها متخلّفة أو جاهلة، نحن المنشدون؛ كم نعاني في هذه الأيام؛ و في القرن 21؛ من قلّة التذوّق الفنّي عند كثير من السّمّيعة ؟.

لا أقول كلّهم؛ فذلك متفاوت كذلك حسب البلدان؛ خاصّة عندما ننشد في عرس؛ فيكون طلب الجمهور باللّهجة المحليّة : " رقّصنا يا شيخ "، " بدنا ندبك يا شيخ ". !!!

لقد أصبح الفنّ للترقيص و ليس للطّرب و للإستمتاع أو للإستفادة من مضمون الأشعار الرّاقية؛ و لذلك انحدر كثيراً و غابت ملامحه و ذابت شخصيّته.

لعلّي عبّرت و ترجمت بهذا التّوصيف عن حال كثير من أهل الفنّ الجادّين؛ و المتمسّكين بالأصالة؛ و أفصحت عمّا يدور بخواطرهم من أسىً و امتعاض.

- 9 -

كان كثير من المنشدين في القرنين الماضيين؛ يمارسون الإنشاد و الغناء و التّجويد، كانوا يجيدون ذلك؛ و قد عاصرنا عدداً من هؤلاء، و قبل ظهور " الميكروفون " ما كان أحد يدخل هذا المجال إلاّ أصحاب الأصوات القويّة الجميلة، لأنّه كان عليه أن يُسمع مئات النّاس أو ربما الآلاف بصوته الطّبيعيّ دون مكبّرات صوت، فكان أرباب ذلك الفنّ منتقون انتقاء؛ و حازوا الشّهرة و المكانة عن جدارة و أهليّة دون أيّة مؤثّرات خارجيّة مطلقا.

لكن لمّا دخل عصر" الميكروفون " أصبح يلج هذا الميدان كلّ من هبّ و دبّ؛ لأنّ هذه الآلة تقوّي الصّوت مئات المرّات؛ و كذلك أصبح أصحاب الأصوات غير اللاّئقة فنيّا يستترون خلف الموسيقى و خلف الإيقاعات القويّة الصّاخبة؛ و خلف المؤثرات الصّوتيّة التي تخفي كثيراً من عيوب الصّوت، مثل " الإيكو " أي الصّدى؛ و غيره على سبيل المثال، لذلك تجد الآن في عصرنا الآلاف من المنشدين و المغنّين الذين عمروا السّاحة الفنّيّة؛ و كثير من هؤلاء لا يملكون الأهليّة لمزاولة هذا الفنّ.

مرّة؛ سُئل الموسيقار " محمّد عبد الوهّاب " عن سبب تدنّي مستوى الغناء فقال : " ظهور الميكروفون ".

و سُئل نفس السّؤال في أواخر حياته فأجاب : " إنّ سبب تدنّي مستوى الغناء هو ضعف ثقافة الجمهور ".

كانت المدّة الزمنيّة بين السّؤالين سنوات طويلة؛ و لكلّ مرحلة منهما تشخيصها الخاصّ؛ و قد أصاب " محمّد عبد الوهّاب " في تشخيص المرحلتين، و ما دام كلامنا عن الإنشاد؛ فإنّ ما ينطبق على الغناء ينطبق عليه كذلك تماما، فقد كانت الأغنية أو الأنشودة قديما " تُسمع بالأذن "؛ فأصبحت اليوم " تُشاهد بالعين "، و هذه المقولة معبّرة جدّا عن حال التدنّي الذي وصل إليه الغناء و الإنشاد على حدّ سواء؛ فلا يُشترط في المنشد أو المغنّي الآن جمال و قوّة الصّوت؛ فالأجهزة و التّكنولوجيا كفيلة بذلك، و لا يُشترط فيهما كذلك معرفة المقامات و الإيقاعات و السلّم الموسيقيّ؛ كما لا يُشترط فيهما حفظ الكثير من ألحان التراث، بل يُشترط فيهما أن يكونا على جانب من الوسامة و الجاذبيّة التي تجذب الجمهور

إليهما و تشدّه؛ و يُشترط فيهما شرط مهمّ و ضروريّ، أن تكون لهما ما يسمّى " العلاقات العامّة " التي تفتح لهما الأبواب؛ فتصعد بهما في سلّم الشّهرة و الإنتشار و لو بشيء يسير من الموهبة و الإمكانيّات الفنّيّة.

- 10 -

أريد أن أذكر لأخي القارئ الكريم أنّ ما أكتبه هنا أكتبه كباحث محايد؛ لا كمنشد يرى الأمور من منظاره هو، ثمّ قد يظنّ ظانّ أنّ الأمرين سيّان؛ و هذا الظنّ غير صحيح إطلاقا، فمن يقرأ كلامي؛ أريد أن يأخذه من " الترمذيّ " الباحث و ليس من " الترمذيّ " المنشد، أي أنّني أبتعد عن حظّ النّفس ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

قد ذكرت سابقاً أنّ الغناء بفرعيه الدّينيّ و الدّنيويّ كان قديما، أي قبل نصف قرن و ما قبل ذلك كان يُسمع بالأذن؛ فأصبح الآن يُشاهد بالعين، و شتّان شتّان بين الإثنين.

معنى ذلك أنّه لم يعد متعة للرّوح و القلب و الوجدان؛ يرتقي بالمشاعر و الأحاسيس؛ مبتعداً عن حضيض المادّة إلى أجواء الرّوح و فضاءات المعاني و المشاعر الرّاقية كما كان في تلك العهود.

الذي لم يعش تلك الأجواء الرّوحانيّة الطربيّة السّامية؛ سوف يشكل عليه كلامي كثيرا؛ فكيف يدرك شيئاً لم يتذوّقه ؟!، كأن أتكلّم عن حلاوة العسل و لذّة طعمه لشخص لم يذق العسل في حياته.

لقد أصبح الإنشاد و الغناء في عصرنا هذا فنّا استعراضيّا في أغلب الأوقات؛ قُصد منه إمتاع النّظر و إبهار المشاهد؛ و ليس إنعاش روحه و إسعاد قلبه.

في مرّة من المرّات؛ قال لي أحد الأشخاص : " أنا لا يعجبني النّشيد؛ إلاّ إن كانت تصاحبه فرقة للدّبكة " !، فقلت في نفسي : " يا ضيعة الفنّ؛ و يا خسارة تلك الأوقات التي أنفقناها في حفظ التراث؛ و تعلّم فنون الأداء؛ و البحث عن الأشعار الرّاقية إن كان جمهورنا و من يستمعون إلينا لا يعجبهم كلّ ذلك؛ و لا تعجبهم الأصوات الجميلة؛ إلاّ إذا شاهدوا فرقة " الدّبكة " تزلزل الأرض بخبط أقدامها " !.

لا أقترح هنا أن تُلغى الدّبكة من أساسها؛ و إنّما تكون للدّبكة فقرة مستقلّة بعيدة عن الإنشاد كلّيّا؛ لأنّ الله

لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه؛ فهل يستمع الجمهور للمنشدين أم يشاهد دبك الدّابكين ؟.

الذي وعيته في " حلب " قديما؛ أنه لمّا يبدأ الإنشاد كان يُمنع الكلام منعاً باتا؛ و يُمنع تقديم الضّيافة كذلك إلاّ في وقت مخصّص لذلك؛ و يكون الإصغاء التامّ و بجميع الجوارح أثناء الأداء؛ و كأنّه شيء مقدّس له حرمته، لذلك كان المنشد أو حتى المغنّي يجود بالعطاء و يبدع في الأداء، و كان أهل الحفل يُجلسون المنشدين في صدور المجالس لأنّهم سيأخذون جمهور السّميعة الذوّاقين إلى رحلة سماويّة روحانيّة؛ لا تمتّ إلى عالم الأرض بصلة.

مقاربة آيديولوجيّة : لقد تغيّر الجمهور بتغيّر الأجيال، فقد كان قديما من أبناء الحركة الإسلاميّة " أبناء الصّحوة " و الذوّاقين من الآيديولوجيّات الأخرى، أمّا في الوقت الرّاهن فقد انفتح فنّ الإنشاد على الجمهور العالميّ، فأصبح الجيل الذي كان يتغيّر في 40 سنة تتغير الآن أفكاره و اعتقاداته في 10 سنوات فقط؛ لانتشار وسائل الإتّصال التي ساهمت في نقل الأفكار بين شعوب المعمورة.

- 11 -

يسألني الكثيرون : " من هو الشخص الذي اخترِع المقامات الموسيقيّة ؟؟؟ ".

إنّه سؤال وجيه يجعلني أتبسّم؛ فأقول للسّائل : " من هو الشّخص الذي اخترِع أنواع الطعام؛ و وضع قواعدها ؟! "، فيتحيّر السّائل من سؤالي و يقول : " لا أعلم "، فأقول له : " جميل؛ إعلم يا أخي أنّ هذه مسألة تراكميّة استغرقت آلافاً من السّنين؛ بدأت بشكل بدائيّ جدّا و بسيط للغاية؛ ثم صارت تزداد و تتطوّر شيئا فشيئا؛ و كلّ عصر يضيف أهله شيئا يسيرا لما عندهم من موروث؛ سواء على مستوى المقامات الموسيقيّة أو الغناء أو صنع الآلات الموسيقيّة و العزف عليها ".

و كان هذا التطوّر و التّقدّم في مختلف العلوم و الفنون و العمران و الصّناعة يختلف من بلد إلى بلد آخر؛ على حسب قوّة و تقدّم و حال ذلك البلد خلال العصور.

بالنّسبة للمقامات و الموسيقى و الغناء؛ فإنّ ذلك كان متطوّراً و متقدّماً عند " الفرس "؛ " اليونانيّين " و " الصّينيّين " و " الهنود "؛ و في الحضارة الفرعونيّة المصريّة؛ و في حضارات أخرى بنسب أقلّ، و كان الغناء و متعلّقاته موجوداً في كلّ مكان من أرجاء المعمورة حتى في غابات إفريقيا و أدغال الأمازون؛ لكن كما قلنا كلّ أمّة حسب قوّتها و تقدّمها، ثمّ استقرارها.

هكذا نشأت المقامات بإضافة صوت فوق صوت فوق صوت بشكل منسجم و متناسق حتى يصل الصّوت 8 إلى ما يسمّى " الجواب " و يكون حادّا، بينما الصّوت الأوّل الغليظ كان يسمّى " القرار "؛ و هذه الأصوات 8 التي ركّبوها فأعطت انطباعاً سمعيّاً معيّنا؛ أطلقوا عليها إسماً معيّناً حتى يميّزوها عن غيرها؛ كما نطلق على أولادنا أسماء حتى نميّز كلّ واحد عن الآخر، و جاؤوا أيضا إلى أصوات أخرى؛ فركّبوها بعضها فوق بعض و لكن بأبعاد مختلفة عن المقام 1 الذي ركّبوه سابقا؛ و بشكل منسجم كذلك بين درجاته؛ فلمّا استساغوه أطلقوا عليه اسماً آخر مختلفا.

هكذا و هكذا؛ كلّ عصر يضيف إلى ما عمله العصر الذي قبله حتى وصلت إلينا هذه المقامات نتاجاً لآلاف

السّنين.

و كانت مسيرة جميع العلوم و الفنون و الصّناعات و غيرها؛ و لا يظنّ ظانّ أنّ أهل هذا الفنّ اجتمعوا مع بعضهم في جلسة واحدة أو عدّة جلسات و صاروا يركّبون هذه المقامات واحداً تلو الآخر حتى أنجزوا العمل !، كلاّ فهذا خطأ؛ إنّما كان الأمر شيئاً تراكميّا تنامى و تطوّر على مرّ السّنين و كرّ الأعوام.

لمّا دخلت أمّتنا العربيّة في الإسلام؛ و دخلت بلاد " فارس " ناشرة دينها الحنيف؛ أخذت من الفرس علمي الموسيقى و المقامات؛ لذلك نلاحظ أنّ أسماء مقاماتنا؛ و كثيراً من أسماء الإيقاعات هي أسماء فارسيّة؛ باستثناء 3 مقامات هي :

1 - مقام " بيات ".
2 - مقام " صبا ".
3 - مقام " حجاز ".

كما أخذ العرب عن اليونانيّين علم الفلسفة بعد أن حذفوا منه الأساطير و الخزعبلات و الشّركيّات.

مقاربة آيديولوجيّة : تُعتبر قضيّة نشوء المقامات العربيّة من أعقد القضايا؛ كونها ترتكز على ما حدث في الزّمن الغابر؛ إذ تقوم على أصوات السلّم الموسيقيّ المتوفّر في كلّ حضارة؛ و راحت المعارف تنتقل من حضارة لأخرى عبر التجارة و البحث و التأليف و الإبداع.

إنّ اسم " المقامات العربيّة " اسم ناقص من عبارة " المقامات العربيّة الإسلاميّة "؛ ثمّ تناسى الناس كلمة " الإسلاميّة "بمرور الزمن.

- 12 -

إذن عرفنا كيف نشأت المقامات و تطوّرت؛ و ينطبق ذلك على باقي الفنون و العلوم.

أستُعمل الغناء قديماً للترويح عن النّفس؛ أو أثناء العمل للتّخفيف من ثقله على الإنسان؛ أو أستُعمل في المعابد على اختلاف أنواع الدّيانات و العقائد؛ عند الهندوس و البوذيّين و المجوس و الفراعنة و في كنس اليهود و كنائس النّصارى؛ و ما من ديانة إلاّ استعملت الغناء في طقوسها و عباداتها و معابدها؛ و ذلك في تمجيد و تقديس إلهها الذي تؤمن به و تعبده.

و لمّا جاء الإسلام خاتماً للدّيانات و الشّرائع دخل إليه الغناء الدّينيّ الذي سُمّي بعد ذلك " إنشادا " كاصطلاح اتفق عليه؛ و قد كان يُسمّى أيّام الصّحابة و التّابعين رضي الله عنهم " سماعا "؛ و إلى الآن في دول المغرب العربيّ يسمّونه اصطلاحا " السّماع الصّوفيّ "، و غالبا تصاحبه الآلات الموسيقيّة؛ إذ أنّ الفقيه " إبن حزم الأندلسيّ " أجاز استعمال الآلات الموسيقيّة بضوابط حدّدها؛ و كان قبله بعض الصّحابة و التّابعين؛ من أجاز ذلك؛ و جاء بعدهم من أجاز ذلك إلى يومنا هذا؛ يضيق المجال عن حصرهم.

إذن كان هناك غناء دينيّ عند كلّ ديانة؛ و بالنّسبة للإنشاد عندنا نحن المسلمون؛ فالأصحّ أن نطلق عليه " إنشاداً إسلاميّا " لأنّنا عندما نطلق عليه تسمية " إنشاد دينيّ " تكون التّسمية غير دقيقة تماما، لأنّ إنشاد اليهود هو إنشاد دينيّ؛ كذلك إنشاد النّصارى هو إنشاد دينيّ؛ إن صحّ التعبير، و غيرهم.

و لمّا تطوّر الغناء و العزف و المقامات في العصور التي سبقت الإسلام؛ أصبح يُستعمل للطّرب و للمتعة و للّذّة؛ بعد أن كان في بداياته يُستعمل للأغراض التي ذكرناها في أوّل حديثنا؛ و كان اسمه " غناء " أي مشتقّ من " التغنّي " و هو تحسين الصّوت في أداء الشّعر؛ حتّى أنّ النّبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم قال لأصحابه الكرام : " من لم يتغنّ بالقرآن فليس منّا "، أخرجه " أبو داوود ".

فأطلِق على تحسين الصّوت بالقرآن وصف " التغنّي "؛ إذن فلا حرج لو وصفنا إنشادنا الإسلاميّ بأنّه غناء؛ و لما كان في ذلك أيّ خطأ؛ أخذاً بلغتنا و مدلولاتها؛ و طالما أنّ من سبقنا قد سمّى غنائنا الدّينيّ " إنشادا " فإنّنا نأخذ بهذه التّسمية الجيّدة و نخرج من دائرة الحرج و الخلاف على المصطلحات؛ و لا ننكر على من أطلق عليه إسم " غناء " لأنه صحيح كذلك من المفهوم اللّغويّ.

مقاربة آيديولوجيّة : ظهرت الفنون الغنائيّة الدّينيّة قبل الميلاد؛ مرتبطة بالدّين الذي كان يسود الناس آنذاك، و بغض النظر عن وظيفتها؛ فإنّ ما يهمّنا هو تقنين المصطلحات؛ فنطلق مصطلح " المزامير " على الفنّ الغنائيّ الدّينيّ الذي كان و ما زال يهتم باليهوديّة؛ و نطلق مصطلح " الترانيم " على شبيهه الذي يوجد في النصرانيّة، و نطلق مصطلح " الإنشاد " على شبيهه لدينا في الإسلام شرط خلوّه من استعمال آلات العزف الموسيقيّة دون الإيقاع؛ فإذا كان مع استعمالها و لو أثراً بسيطاً يطلق عليه مصطلح " التغريد ".

أمّا مسألة الجواز من عدمه بالنسبة لفنّ " التغريد " أو كما يعتبره البعض بدعة حتى أنهم أقحموا الإنشاد معه؛ فتلك أشياء أخرى تخضع لمتغيرات متعدّدة عبر الزمكان؛ فالمهمّ هو تقنين المصطلحات لأنّ كلّ شيء إلاّ و له أثر.

- 13 -

دخل شيء جديد على الإنشاد و على الغناء؛ و لم يعد مقتصراً على الطّرب؛ و على إمتاع السّمع و إرواء عطش الرّوح؛ ألا و هو تسخيره لقضايا نبيلة مثل مقارعة الإستعمار؛ و طرد الغزاة؛ و التمرّد على الظّلم؛ كما حصل في " مصر " في الثّلث 1 من القرن 20؛ أيّـام الإستعمار البريطانيّ؛ و ثورة " عرابي باشا "؛ حين كان الحكم الملكيّ؛ و كذلك حين اضطُهِد " الإخوان المسلمون " في مصر بعد ثورة يوليو 1952.

نظم شعراء منهم؛ أشعاراً كثيرة تصبّ في هذا المعنى؛ و تمّ تلحين كثير من تلك الأشعار و دُوّنت في كتب ما تزال موثّقة إلى الآن؛ إذن فقد تسيّس الغناء الدّينيّ و الدّنيويّ؛ و أصبح يحمل فكراً و هدفاً سياسيّا أو دينيّاً موجّها؛ لقد اتّضحت أهميّة الفنّ و تأثيره على النّاس و دوره في صياغة أفكارهم و قناعاتهم.

لمّا حصل العدوان الثّلاثيّ على " مصر " من " بريطانيا " و " فرنسا " و " الكيان الإسرائيليّ " عام 1956؛ و هبّ الجيش مع الشّعب للذّود عن حياض الوطن و مواجهة المعتدين؛ سمعنا كثيراً من الأغاني الثوريّة تردّدها حناجر كبار المطربين؛ و ما تزال تلك الأغاني محفوظة في الأرشيف، إذ كان لها تأثير كبير في تأجيج مشاعر النّاس و إلهاب عواطفهم للتّضحية؛ في الدّفاع عن الوطن؛ حتى أنّ منشداً حلبيّاً مشهوراً أصله من المدينة المنوّرة؛ إسمه " أحمد السّمان المدنيّ "؛ كان في فرقة المنشد " صبري المدلّل "؛ تأثّر بذلك العدوان الثّلاثيّ على مصر؛ فنظم أنشودة شهيرة ظلّت تردّد عقوداً من الزّمن تعاطفاً مع ذلك الحدث؛ أذكر طرفاً منها :

ربّ الأعدا قد ظلمونا	كدهم يا قهار
عذبونا و ما رحمونا	خذ منهم بالثّار
و انصر اللّهُمَّ العرب	باسمك العزيز
و اقهر الأعداء طرا	روسيا و انكليز
و أمريكا اخذلها ربّي	باسمك القهّار

برسولك المأمون نرجو قهر الإستعمار
يا مولانا أنت رجانا يا حيّ يا ودود
بجودك اسمع ندانا أخذل اليهود

و هي أنشودة طويلة ذكرت منها محلّ الشّاهد.

لقد ذكر فيها " روسيا " و " أمريكا " مع أنهما لم تشاركا في العدوان بشكل مباشر؛ غير أنّ " روسيا " أمدّت " الكيان الإسرائيليّ " بالرّجال؛ و اعترفت بشرعيّة وجوده، و ذكر " أمريكا " لأنّها أمدّته بالسّلاح و المال.

للحديث بقيّة عن استعمال فنّ الإنشاد و فنّ الغناء لكثير من الأغراض النّبيلة و غير النّبيلة؛ بعد أن كان غرضه قديما هو الطّرب أو التّرويح عن النّفس.

- 14 -

هناك أمور كثيرة مهمّة في عالم الإنشاد ينبغي التحدّث فيها؛ و هي تفيد أكثر ما تفيد جيل الشباب، الذي أخذ يشقّ طريقه في زحمة طريق الفنّ المليء بالمصاعب؛ و بالمتناقضات في بعض الأحيان.

فهذا الشابّ الذي وجد عنده صوتا، و ربما كان في صغره ينشد مع فرقة المدرسة، و ربما سمع زيدا أو عمرا من المنشدين فتأثّر ببعضهم و صار يردّد بعض ألحانهم لنفسه أو لأصحابه، فلقي بعض التّشجيع من هنا و هناك؛ مثل هذا الشّخص و أمثاله؛ كيف يبدأ ؟ و كيف يسير ؟ و كيف يرتقي حتى يصبح منشداً متمكّناً من جميع الجوانب ؟، خاصّة إن كان يمتلك الصّوت الجميل ؟.

يا ترى ... هل يبدأ بحفظ ألحان التّراث كالموشّحات الغزليّة، و القدود الحلبيّة، و الإبتهالات و المدائح ؟.

أم يُعرض عن ذلك كلّه - لأنه يحتاج إلى وقت طويل و جهد كبير - و يتّجه إلى الألحان الخفيفة المعاصرة التي لا تحتاج لا إلى ذلك الوقت و لا إلى ذلك الجهد ؟.

إنّه شيء محيّر لأولئك النّفر من الشّباب الطّامح المتطلّع للتقدّم في زمن سريع متغيّر يضغط بثقله على النّاس؛ أقترح في مثل هذه الظّروف الصّعبة؛ أن يشكّل عدد من الشّباب فرقاً إنشاديّة؛ تكون متجانسة في الأعمار؛ و في الأصوات؛ و في الثّقافات، و تتفاهم فيما بينها على حصص تدريبيّة أسبوعيّة يحضرها الجميع بانتظام، و تتفق على حفظ ألحان جميلة الكلمات ذات مضمون راقٍ، و لحن يحوي الجمال و السّهولة في نفس الوقت، و تكون هذه الأناشيد في مواضيع شتّى؛ في تمجيد الله تعالى و مدح النبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم، و في المناسبات الدّينيّة كذكرى المولد أو الهجرة أو ذكرى الإسراء و المعراج أو رمضان، و أيضا أناشيد في مناسبات اجتماعية كأناشيد الزّفاف و أناشيد العزاء أو المآتم، و أناشيد عن الأمّ و أناشيد للطّفل، و للمرأة و للأسرة و غيرها؛ و ما أكثر المناسبات و المواضيع في حياتنا !، و إذا أرادت هذه الفِرق أن يكون عملها صحيحاً و دقيقا؛ فالأفضل أن يكون لها مدرّب و موجّه من أهل الخبرة يحفّظها

اللّحن ثمّ يشرح المقام الذي عُمل منه هذا اللّحن، و الدّرجة الصّوتيّة المناسبة حتى لا تكون حادّة كثيراً و لا منخفضة كثيرا؛ و يعرّفهم كذلك على الميزان الموسيقيّ الذي سار عليه اللّحن بدمّاته و تكّاته و سكتاته، و موضع الدّخول في كلّ لحن، لأنّ لكلّ لحن موضع دخول تجب معرفته.

إذن فالأمر ليس بتلك السّهولة التي يتخيّلها البعض من أنّ الإنشاد هو أن تمتلك الصّوت و يكفي !.

لا فالأمر أعقد من هذا؛ و ربما لا تجد الفِرقة أستاذاً يعلّمها و يوجّهها؛ فعند ذلك تعمد إلى تسجيل صوتيّ لكلّ لحن تريد أن تحفظه و تسمعه مقطعاً مقطعاً و تحفظه كما سمعته؛ و بعد أن يتمّ حفظ اللّحن تقوم المجموعة بتسجيله ثمّ سماع الأداء بدقّة حتى تتبيّن كيفيّة أدائها لذلك اللّحن، و إذا وُجد خلل في الأداء؛ فينبغي إصلاح ذلك الخلل و إعادة التّسجيل و الإستماع مرّة ثانية للتّأكّد أنّ ذلك الخلل قد زال تماما.

لماذا أكّدت على التّسجيل ثمّ الإستماع ؟.

لأنّ الخلل أثناء العمل قد لا يظهر، و لكن سماع التّسجيل يُظهر موضع الخلل بشكل جليّ.

مقاربة آيديولوجيّة : يتطلّب تأسيس فرقة إنشاديّة تعمل وفق الفكر الإنشاديّ الحديث وجود مشرف مختصّ في الإنشاد و ليس أستاذ موسيقى فقط؛ لأنّ الإنشاد تطوّر و ارتقى و لم يعد ذلك الميدان البسيط الذي عرفه النّاس قديما، فكما أنّ الموسيقى هي علم مستعمل؛ مثلما نستعمل غيرها من العلوم مثل الإتصال و الإنفوغرافيا و علم النفس الإجتماعيّ و علم التربية ... إلخ.

- 15 -

طلب إليّ الأستاذ الجزائريّ " عبد الرزاق أنفو " رئيس النّادي الإنشاديّ " قندس " حفظه الله، أن أكتب شيئاً ما عن " القدود الحلبيّة "، خاصّة و أنّ هذه التّسمية شاعت و انتشرت على ألسنة الكثيرين من أهل الفنّ؛ و عُرف عن المطرب السّوريّ الحلبيّ " صباح فخري " أنّه مطرب " الموشّحات " و " القدود الحلبيّة "؛ فما هي " القدود الحلبيّة " ؟.

إنّها باختصار أغانٍ شعبيّة بكلّ معنى الكلمة، كان يغنّيها مغنّو و مطربو مدينة " حلب " منذ قرون و إلى الآن، كأيّ أغانٍ شعبيّة أخرى تغنّى في أرجاء المعمورة.

طالما أنها أغانٍ شعبيّة كأيّ أغانٍ شعبيّة أخرى فلماذا أخذت هذه الشهرة ؟؛ و بماذا تميّزت عن غيرها ؟.

إذن لا بدّ أنّ هناك سبباً أعطاها هذا التميّز، نبدأ أوّلا من النّصّ الشّعريّ، فنقول أنّ الشّاعر أو النّاظم أو الذي يكتب " الأزجال " - أي الكلمات باللّهجة العامية المحليّة الدّارجة - هو إنسان كباقي النّاس؛ له أحاسيس و مشاعر؛ يتأثر متفاعلاً مع ما يجري له من أحداث مؤثّرة؛ كفراق حبيب، أو اشتياق لخلّ بعيد، أو عتاب لمحبوب جفاه و أعرض عنه، أو تغزّل بمن يهوى، أو شكوى من ظروف صعبة تمرّ به، أو مناجاة لله أو مدح لنبيّه عليه الصّلاة و السّلام ... إلخ؛ فيعبّر عن هذا كلّه بكلام فصيح أو زجل، فإذا كان من أهل الموهبة التّلحينيّة؛ فإنّه يقوم بتلحين ما كتب، أو يعطي ذلك النصّ الشعريّ لملحّن يضع له لحنا، و الملحّن يعطي ذلك النصّ الملحّن الذي أصبح أغنية جاهزة؛ للغناء لمطرب؛ أو للأداء لمنشد.

فإن كانت دنيويّة؛ غُنّيت مع الموسيقى غالباً في مناسبات الأعراس أو الأفراح الأخرى، و إن كانت دينيّة؛ فإنّها تُنشد في المساجد أو الزّوايا الصّوفيّة أو مجالس المولد، إلى هنا فإنّنا لم نأتِ بأيّة ميزة تخصّ ما يسمّى " القدود "، و إنّ هذا الذي ذكرناه ينطبق على أيّة أغنية شعبيّة في العالم؛ لكن الذي يميّز " القدود " هو أنّ هذه الأغنية الشّعبيّة الدّنيويّة قد تنتشر كثيراً بين النّاس، و تصبح مألوفة و مطلوبة بشدّة؛ و لربما سمعها بعض الزجّالين المتديّنين فأعجبته، فيقوم

بكتابة نصّ شعريّ مشابه لنصّ الأغنية الشعبيّة، ربما من حيث القافية، و من حيث البحر الشعريّ أو التّفعيلات، لكن يخالف ذلك النصّ الدّنيويّ، فيجعل الأفكار و المضامين؛ أفكاراً و مضاميناً دينيّة محضة، و يأخذ لحن الأغنيّة الدّنيويّة فيُلبسه لنصّه الدّينيّ، و يعطي هذه الأنشودة الدّينيّة لأحد المنشدين لينشدها في المجالس الدّينيّة، إذن هو في هذه الحالة - أي كاتب النصّ - لا يحتاج لملحّن يلحّن له ما كتب، لأنّ اللّحن موجود مسبقا.

و هل نسمّي هذه العمليّة هنا " سرقة لحن " أو " اقتباس لحن " ؟.

إنّ بعض الملحّنين لا يحبّون أن تؤخذ ألحانهم و يوضع لها نصّ شعريّ آخر، و بعضهم لا يمانع في هذا، و بعضهم يحبّ أن يعلم بهذا.

مرّة؛ أعلمني أحد أصدقائي أنّه أخذ لحناً لي عن مولد النّبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم و هي أنشودة " بالله غرّد يا حمام "؛ و وضع لها كلمات أخرى عن مناسبة سياسيّة أو شيء من هذا.

إذن هذا وجه من وجوه صنع " القدود الحلبيّة ".

أمّا الوجه الآخر؛ فهو أن يأتي شاعر أو زجّال إلى أنشودة دينيّة مشهورة و متداولة بين النّاس، فيكتب نصّاً دنيويّا من الغزل و غيره؛ و يأخذ ذلك اللّحن الدّينيّ فيلبسه لنصّه الدّنيويّ، و يقوم المغنّون بغناء هذا النصّ الغزليّ المقلوب عن أنشودة دينيّة.

إذن العمليّة متبادلة بين الطّرفين؛ و من هنا نشأت تسمية " القدود " و هي جمع مفردها " قدّ "، و هذه كلمة يستعملها السّوريّون؛ فلمّا أشير إلى كفّي الأيمن و أقول : هذا الكفّ " قدّ " هذا الكفّ ثمّ أشير إلى كفّي الأيسر، فيفهم الذي أمامي أنّ الكفين بمقدار بعض و متساويان تماماً لا يختلف أحدهما عن الآخر بأيّ شيء.

هذا نراه موجوداً في القدود التي نُسبت إلى مدينة " حلب "، مع أنّ كثيراً من المدن السّوريّة فيها قدود أيضا كمدينة " حمص " و مدينة " دمشق " و غيرها.

لأضرب لك مثالا؛ فإنّ الأغنية الشّعبيّة العراقيّة الشّهيرة التي غنّاها الكثيرون " فوق النّخل فوق " أعجبت أحد الزّجّالين الحلبيّين و هو معاصر، فوضع لها نصّا شعريّاً دينيّاً غير نصّها الأصليّ فصارت هكذا " فوق الحرم فوق "، و قد يكون العكس؛ فإنّ أغنية " قدّك الميّاس يا عمري " التي يغنّيها " صباح فخري " و غيره، هي " قدّ " دنيويّ مأخوذ عن أصل دينيّ و مقتطع من فاصل " إسقِ العطاش "، و هو مجموعة ألحان دينيّة تنسب كلماتها للشيخ " عبد الغنيّ النابلسيّ الدّمشقيّ " رحمه الله تعالى الذي عمل تلك الأشعار و لحّنها الشيخ " محمّد المنبجي "، بمناسبة الجفاف الذي أصاب شمال مناطق " سورية "؛ و سمّيت تلك الألحان الدّينيّة " فاصل اسقِ العطاش "؛ و أنشدت في العراء بعد صلاة استسقاء لمدّة ساعتين، و تقول الرّواية أن الله أغاثهم بالغيث و انتهى الجفاف.

لا يُعقل أن يكونوا قد ناجوا الله تعالى و استغاثوا به بأغنية " قدّك الميّاس يا عمري " و إنّما بنصّ آخر دينيّ، قد

فُقد مع ثلاثة أرباع " فاصل اسقِ العطاش "، و بقي لنا منه ربعه فحسب، فلمّا سمع أحد الزّجّالين اللّحن الأصليّ أعجبه؛ فعمل له " قدّا " هو " قدّك الميّاس يا عمري ".

أظنّ أنّا بهذا قد أوضحنا معنى تسمية " القدود الحلبيّة "، فهي تمتاز ببساطة الكلمات و انسيابيّة الألحان و جمالها فعفويّتها، و تكون غالباً على أوزان خفيفة سريعة كميزان " البلديّ " أو " اللّف " أو " المقسوم "؛ و قد يكون " القدّ " معمولاً على قالب " الموشّح " مثل قدّ " جلّ من قد أرسلك رحمة للعالمين "، و الأصل هو موشّح " جلّ من قد صوّرك بهجة للنّاظرين "، و الكلام في هذا يطول و يطول و يطول.

- 16 -

قلت أنّ " القدود الحلبيّة " هي أغانٍ شعبيّة تغنّى في مدن " حلب " و " حمص " و " دمشق " و غيرها؛ و لربما أعجبت هذه الألحان المنشدين المتديّنين الذين يتحرّجون من غناء تلك الألحان التي ربما فيها كلمات تخدش الحياء، أو ربما فيها كلمات تخالف عقيدة المسلمين؛ فيقوم هذا المنشد بتغيير تلك الكلمات بحيث تصبح كلمات لائقة أدباً و عقيدة و يبقي اللّحن على حاله دون تغيير؛ و ينشدها في المساجد أو المجالس الدّينيّة و العامّة دون أيّ حرج.

يسمع باقي المنشدين هذه الأنشودة المقلوبة عن أغنية شعبيّة فيحفظوها و ينشدوها في مجالسهم فتنتشر و تُعرف؛ فتسمّى " قدّا "، و إذا استعملنا صيغة الجمع تسمّى " قدودا "؛ و أضيفت إليها كلمة " حلب "؛ فأصبحت تسمّى " قدوداً حلبيّة "، ذلك لأنّ أهل " حلب " كانوا يكثرون من عمليّة التّحويل هذه، فتأتي هذه القدود المقلوبة على مقدار و مقاس تلك الأغاني الشّعبيّة الغزليّة؛ و كلمة " قدّ " في سوريا معناها " بمقدار "، و صورة طبق الأصل.

ضربت مثلا في المقالة السّابقة أنّني عندما أقول : هذا الكفّ قدّ هذا الكفّ؛ أي الكفّان بمقدار بعضهما.

بالمقابل؛ لو أنّ مغنيّا أعجبه لحن دينيّ " أنشودة " فيعمد إلى قلب الكلمات الدّينيّة إلى كلمات غزليّة و يقوم بغناء هذه الأغنية المحوّلة عن أصل دينيّ إلى لحن دنيويّ و يغنّيها مع الموسيقى في الأعراس و المناسبات الأخرى، تسمّى " قدّا "؛ أمّا الذي يقوم بقلب الكلمات يسمّى " مقدّدا "، سواء الدّينيّة أو الدّنيويّة.

لكن إذا كان المقدّد قد حوّل أغنية أو أنشودة دمشقيّة و ليس أغنيّة أو أنشودة حلبيّة، فهل يصحّ أن تبقى نفس التّسمية ؟.

كلاّ لا يصحّ؛ و لكان هذا إجحافاً و غمطاً للحقّ، و الأفضل في هذه الحالة أن نسمّيها " قدودا " و كفى، نظراً لتداخل الأمور في بعضها البعض؛ فالأفضل أن تلغى كلمة " حلبيّة " و تبقى كلمة " قدود " لأنّ كثيراً من تلك الألحان؛ تعدّدت المدن التي صدرت عنها، حتّى لا يغضب أحد و لا يُغمط حقه.

لأضرب مثالا؛ فإنّ أغنية " فوق النخل فوق " التي يصحّح لفظها " نصير شمّه " فيقول " فوق إلنا خلّ " أي في السّماء لنا حبيب.

أقول أنّ هذه الأغنية هي أغنية عراقيّة صرفة لا جدال فيها، أعجبت صديقنا الزجّال الحلبيّ " محمّد تيسير عاصي " المكنّى باسم " أبي رضوان "؛ فصاغ لها كلمات دينيّة ممثلة كالتّالي : " فوق الحرم فوق؛ نور النّور تبدّى؛ و اشعل نار الشّوق "؛ و يسمّونها " قدّا حلبيّا " بينما اللّحن عراقيّ، و الكلمات حلبيّة، فأرى في هذه الحالة أن نقول : " قدّ فوق الحرم " و يكفي؛ حتى لا يغضب العراقيّون أصحاب اللّحن، و مثل هذا أغنية " يا حلو يا مسلّيني يلّي بنار الهجر كاويني " و هي أغنية مصريّة معروفة، فأعجبت أخانا " محمد تيسير عاصي "، فصاغ لها كلمات دينيّة هي " من راح الحب إشرب و اسقيني؛ يا ساقي القوم خذ و اعطيني "؛ و صار المنشدون ينشدونها و كذلك تسمّى " قدّا حلبيّا " و أرى أنّ هذا فيه إجحاف بحقّ ملحّنها المصريّ؛ فلو بقي اسمها " قدّا " دون كلمة " حلبيّا " لكان هذا أقرب للصّواب و أنصف.

ليس شرطاً أن يكون المنشد هو الذي يقوم بنظم الكلمات ليعمل منها " قدّا "؛ لأنّ كثيراً من المنشدين لا يستطيعون النّظم، إنّما يقوم بذلك نظّامون يتقنون ذلك في المجال الدّينيّ أو الدّنيويّ.

- 17 -

إستكمالاً لبحث " القدود "؛ فإنّ أكثرها مقلوبٌ عن أغانٍ شعبيّة، أو موشّحات غزليّة، و أقلّها مقلوب عن أناشيد دينيّة، حتى أنّ البعض مقلوب عن لحن موسيقيّ آليّ تركيّ على وزن " السّماعيّ الثّقيل "، و من مقام " البيات " و هو :

يا أجمل الأنبيا يا أكمل الأصفيا يا خاتم الرّسل ما أحلاك في قلبيا

فأصبح " موشّحاً " و هو من " القدود ".

و هناك " قد " مقلوب عن أغنية خفيفة للمغنّية " أمّ كلثوم " في " طقطوقة " :

داويني يا نور الحيّ داويني و انظر إليّ

أمّا أصل " الطقطوقة " :

غنِّ لي شوي شوي غنِّ لي و خذ عينيّ

و هناك " قدّ " فيه :

على طيبه يا الله نروح و نداوي القلب المجروح
و نشوف القبّه الخضرا فيها حبيب الرّوح

و هذا " القدّ " مأخوذ عن الأغنية الشعبيّة التي غنّاها " شادي جميل " :

يا حبيب ما أنساك ما طيق العيشه بلاك
و النّاس تنام بها اللّيل و أنا أسهر ع ذكراك

و هناك " قدّ " :

لمّا أتانا نوّرت دنيانا　　　طه حبيبنا أرسله مولانا، يا هنانا

و هو مقلوب عن الأغنية الشعبيّة :

عليانا إليانا　　　من غرامه يا نا

يا عيون حبيبي　　　م السّهر دبلانه، عليانا

و هناك " قدّ " يقول :

على المدينة على المدينة　　　ربي بلّغنا زيارة نبينا

و هو مقلوب عن الأغنية الشعبيّة :

على دلعونا على دلعونا　　　هوا الشمالي غيّر اللّونا

و هناك " قد " :

يا ربي أسألك سؤال الوجلِ　　　حبيبي محمّد طه أملي

و هو مقلوب عن الأغنية الشعبيّة :

يا هويدا هويدا لك　　　يا هويدا هويدا لي

ع قلبي يا حلوه لا تتدلّلي

و هناك " قد " :

يمّمت حماك أبا القاسم　　　لأنال رضاك أنا الهائم

هذا " القدّ " مقلوب عن الأغنية الشعبيّة :

إبعت لي جواب و طمّني　　　و لو أنّو عتاب لا تحرمني

و هناك " قد " :

يا من يرى و لا يُرى　　　و فضله عمّ الورى

و هذا اللّحن مأخوذ عن " موشّح " :

يا صاح حيّ بدر اللّوي　　　و ارو الهوى عن مقلتي

إذن قالبه " موشّح " و هو " قدّ " في نفس الوقت؛ أعني به : " يا من يرى و لا يُرى ".

و لو استرسلنا في الأمثلة لاحتجنا إلى عشرات الصّفحات، و فيما ذُكر يُغني عمّا لم يُذكر.

- 18 -

نستطيع القول أنّ الإنشاد قبل عام 1967 كان شيئا، ثمّ أصبح بعد 1967 شيئا آخر.

سُمّي هذا العام " عام النّكسة "، و ذلك بسبب الهزيمة العسكريّة؛ 3 دول أمام العدوّ الصّهيونيّ، ممّا نتج عنه وقوع " الضفّة الغربيّة "، بما فيها " القدس " و " المسجد الأقصى " بيد الإحتلال، كذلك " هضبة الجولان " و " صحراء سيناء ".

لقد كانت نكسة مؤلمة للعرب و للمسلمين.

إنّ أحداثاً جسيمة من هذا النّوع تحدث تفاعلاً كبيرا، و ردود أفعال قويّة في نفوس مختلف أوساط النّاس، و منها الأوساط الفنيّة التي هي مجال بحثنا.

و نحن كمنشدين في مدينة " حلب " سمعنا أنشودة حول الموضوع الذي كان حديث العامّ و الخاصّ، معلنة روح التمرّد، و تبث روح الأمل في نفوس النّاس، الذين كسرت روحهم الهزيمة المرّة.

إنّها أنشودة " يا تلاميذ محمّد "، و هي من شعر شاعر " الهند " و " باكستان "؛ " محمّد إقبال " رحمه الله؛ و لمّا أنشدت أنشودته هذه كان قد مات منذ زمن بعيد.

إذن هو لم ينظمها بسبب تلك الهزيمة، بل نظمها قبل ذلك، و جاءت مضامينها و معانيها تناسب ما يحتاجه المسلمون في مرحلتهم الرّاهنة، فكانت كالمرهم للجرح، و كالبلسم للمرض.

مترجَمة من اللّغة الأورديّة إلى اللّغة العربيّة حملها أحدهم و أعطاها للمنشد و الملحّن العريق " صبري المدلّل " رحمه الله، و لقد أبدع " المدلّل " في تلحينها رغم بساطة اللّحن و انسيابيّته، و جعلها على مقام " السّيكاه "؛ و عمل لها مقدّمة تطريبيّة على مزاج أهل مدينة " حلب "، و طلب من أحدهم أن يصنع له نصّاً شعريّا يقول :

صلّوا على خير الأنام	المصطفى البدر التّمام
صلّوا عليه و سلّموا	يشفع لنا يوم الزّحام

إذن صارت أنشودة " إقبال " تبدأ وفق ترتيب " المدلّل " بتلك المقدّمة المكوّنة من بيتين من بحر " **مجزوء الرّجز** "؛ ثمّ تفعيلته مستفعلن مستفعلن، و حرف الرّويّ هي الميم السّاكنة، و البيت الثّاني فيه كسر؛ و هو زيادة حرف الواو من كلمة " و سلّموا " فلو حذفنا حرف الواو لسلم البيت.

و جعل " المدلّل " هذه المقدّمة المكوّنة من بيتين على ميزان " السّماعيّ الثّقيل " المكوّن من 10 أزمنة و هو ميزان يُستعمل في الموشّحات، و بعد الإنتهاء من أداء هذه المقدّمة يكون الدّخول في أنشودة " محمّد إقبال " على إيقاع آخر هو المعروف باسم " البلديّ " السّريع و الرّاقص، أمّا أنشودة " إقبال " فهي من بحر " **مجزوء الرّمل** " المكوّن من " فاعلاتن فاعلاتن ".

لقد كانت هذه الأنشودة الشّرارة التي فتحت باب التّجديد، و أطلقت إشارة البدء للمنشدين الملحّنين بأن يشرعوا في صنع ألحان تخرج عن الإنشاد التّقليديّ الكلاسيكيّ أحيانا؛ و تعود إليه أحياناً أخرى، و ذلك لمّا رأوا من انتشار تلك الأنشودة الدّعويّة الحماسيّة و تأثيرها الهائل في نفوس النّاس منذ ما يقارب نصف قرن من الزّمن.

كرّر "صبري المدلّل " تجربته في أنشودة " شعّ نور الإسلام في كلّ صوب "، و في أنشودة " نحن من أشرق فينا "، ثمّ أنشودة " أنا الدّاعي بإيماني "؛ و بدأنا بعده نحن جيل الشّباب في تلك الفترة، - قبل أن نصبح شيوخاً الآن - نلحّن ألحاناً دعويّة و حماسيّة.

لقد تطوّر بعد ذلك حال الإنشاد إلى أشكال و أشكال تحتاج إلقاء أضواء كثيرة عليها لسبر أغوارها، و استكشاف أسرارها.

مقاربة آيديولوجيّة : سبّبت هزيمة 1967 مرارة كبيرة في نفوس النّاس بسبب الدّعاية الإعلاميّة آنذاك حيث كانوا يعيشون في وهم سرعان ما استيقظوا منه؛ ليكتشفوا أنّ العقليّة الثوريّة على المبادئ الإسلاميّة هي من كانت وراء الهزيمة؛ فقد حدثت مؤامرات على ما يزال يعتقده النّاس إلى الآن أنه جيوش للدّول العربيّة، و لكن في الواقع كانت في تعدادها لا تمثل جيش دولة واحدة؛ دون التطرّق للفوضى في التنظيم و الأسلحة الفاسدة.

كلّ هذا أدّى إلى زيادة الإحساس بالظلم و بالرّغبة في الإنتقام و ولّد التشبّث بأيّ تنفيس كان؛ فخرج المنشد " صبري المدلّل " بأسلوبه الجديد آنذاك، الذي كان قفزة من قفزات مدرسة " التتابع ".

- 19 -

من خلال التقائي بكثير من طالبي علوم الإنشاد؛ لاحظت أنّ البعض منهم ينظرون إليه و كأنه طلاسم؛ أو ألغاز يصعب فكّها، و البعض منهم يمتلكون أصواتاً جميلة أو متوسّطة؛ لكنّهم لا يحسنون استعمالها، و مردّ ذلك إلى قلّة الإستماع للمنشدين أو للقرّاء، و إلى الجهل بقواعد هذا الفنّ.

من الملاحظ أنّ كثيراً ممّن لم يدرسوا هذا الفنّ يؤدّون أناشيدهم أداء جيّدا، و ربما رائعاً في بعض الأحيان، فما هو السّرّ في ذلك ؟ :

1 - جمال أصواتهم التي تساعدهم في الأداء.
2 - كثرة استماعهم للمنشدين؛ أو للقرّاء أو للمغنّين، فتنطبع تلك الجمل اللّحنيّة في مخيّلاتهم، ثمّ يسهل عليهم تقليدها عند الأداء.
3 - كثرة الممارسة إنشاداً أو تلاوة ممّا يعطي المؤدّي تمكّناً و تطوّراً مستمرّاً في الأداء.
4 - الرّغبة الجادّة و صدق الإرادة في تطوير المستوى - حتى دون علم - و ذلك بحسن التّقليد و دقّة الملاحظة لأداء كبار القرّاء و المنشدين.

كلّ هذه العوامل التي ذكرناها توصل صاحب الصّوت الحسن إلى مستوى جيّد من الأداء و لو بغير علم أو دراسة.

لمّا ألتقي بأناس من هذا النّوع الذكيّ و الطموح؛ فإنّهم يتعلّمون أمور الفنّ بسرعة فائقة، فلا أجد معهم تعباً كما أجده مع غيرهم الذين لم يستمعوا و لم يمارسوا.

مقاربة آيديولوجيّة : هناك من الناس من لديه موهبة في الإنشاد؛ يتعلّم بسرعة أكثر من غيره و لكن العلم بالتعلّم التدريجيّ دون القفز على المراحل؛ ففي الواقع تجد منشدين يريدون تعلّم المقامات الموسيقيّة و هم أحوج إلى تعلّم كيفيّة تهذيب أصواتهم و تطويرها.

- 20 -

كيف يطوّر المنشد مستواه الفنيّ ؟.

يسألني الكثيرون هذا السّؤال، و هو سؤال وجيه و جيّد؛ و يعجبني من يسأله، فهو يدلّ على طموح السّائل و حسن تقييمه لنفسه، فإنه يرى و يحسّ أنّه دون المستوى؛ بينما هناك أشخاص يظنّون أنهم بلغوا الكمال فليسوا بحاجة أن يسألوا أحدا؛ فإنّهم أرفع من ذلك؛ و كم و كم و كم ؟؛ لقد سمعنا من أولئك مستويات هزيلة من الأداء؛ فلا نتقدّم إليهم بنصيحة لأنّهم سيمتعضون منّا فنخسرهم.

مثل هؤلاء لا شغل لنا معهم، و أمّا شغلنا مع الذين هم منصفون مع أنفسهم، وموضوعيّون مع ذواتهم؛ فنقول لهم أوّلا يجب التأكّد من أهليّة و إمكانيّة أصواتكم، هل هي تصلح في الأداء الفرديّ الذي يتطلّب مواصفات عالية ؟، أم هي تصلح للأداء الجماعيّ الذي يتطلّب مواصفات أقلّ ؟.

أم هي لا تصلح إطلاقاً لا للأداء الفرديّ و لا للجماعيّ، و الأفضل لمثل هؤلاء أن يبحثوا لهم عن هواية أخرى ينتجون من خلالها؛ و ما أكثر العلوم و الفنون و مجالات الحياة ؟!.

إذا تحقّقت عندك يا أخي المواصفات المطلوبة بشهادة أهل الإختصاص لك؛ فمن هنا يبدأ العمل الجادّ و المثمر؛ فكلّنا جئنا إلى هذه الدّنيا لا نعرف شيئاً؛ ثم سلكنا الطّريق الصّحيح فنال كلّ واحد ما قسم الله له، دون أن نحرق المراحل، فإنّ ذلك لا يجدي و هذه الملاحظة جوهريّة و مهمّة.

و قد ذكرت سابقاً أنّ بعضهم يسألني على الهاتف أن كم أحتاج من الوقت حتى أتعلّم ؟؛ و نحن لا نعلم كيف يكون صوته؛ و ما هي خلفيّته عن هذا الفنّ !؛ فأقول له : " أوّلا يجب أن تأتي لنسمع صوتك ثم نقرّر ".

منهم من يأتي و يسقط في الإمتحان؛ أو ينجح و لكنّ لا يستمرّ؛ فيُنهي نفسه بنفسه، أو لا يأتي مطلقا.

لنفترض أنّك نجحت في امتحان الصّوت؛ فالخطوة التّالية تكون بالمداومة عند أستاذ يبدأ معك بحفظ ألحان سهلة في البداية لينصقل صوتك؛ و أنا هنا أشبّه أصوات المبتدئين بآلة فيها مسنّنات متوقّفة و نريد تشغيلها و ربما للأوقات طويلة؛ فيجب تشحيمها أوّلا؛ ثمّ تشغيلها دون إجهاد في البداية حتى تصل إلى اللّيونة المطلوبة و الإنسجام مع بعضها شيئاً فشيئا؛ و هذا ما يسمّى عند أهل الميكانيك " الرّوداج ".

عند تحفيظ هذا الشابّ هذه الألحان السّهلة في البداية نخبره عن مقاماتها؛ و نعطيه أمثلة على كلّ مقام؛ و يُفضّل أن يكون التركيز مطوّلا على كلّ مقام حتى ينطبع ذلك المقام و يحفر حفراً في المخيّلة، ثم يكون الإنتقال إلى مجموعة أخرى من الألحان و تسمّى " الوصلة " و نعمل معها كما في الأولى و نعلّم هذا المتعلّم اسم الإيقاع الذي نضربه مع كلّ لحن؛ كما يُستحسن استعمال " الدّفّ " من قبل المعلّم و المتعلّم؛ و إذا صعُب ذلك على التّلميذ؛ فيجب عليه أن يضرب الإيقاع أو الميزان بيده على رجله ليتحسّس الزّمن، فإنّ الإيقاع هو مجرّد زمن.

مقاربة آيديولوجيّة : يمكن تعلّم الكتابة الموسيقيّة فهي لغة عالميّة تعزّز لنا عنصر التوثيق لتنتقل المعارف إلى الآخرين بسهولة؛ فيكون الحفظ تلقائيّا دون بذل جهد فيه.

كما تنقسم الأصوات البشريّة إلى عدّة أنواع منها " السّوبرانو " و " الآلتو " للنّساء؛ و " التينور " و " الباص " للرّجال؛ فعلى المشرف أن يكون ملمّا بكيفيّة استخدامها في الكورال.

هناك فرق بين " الإيقاع " و " الوزن "، فهذا الأخير هو الإحساس النفسيّ بالإيقاع، أمّا الإيقاع فهو ترجمة الوزن إلى صوت مسموع.

- 21 -

ذكرنا أنه ينبغي أخذ العلم عن أربابه ليكون موثوقاً و صحيحا؛ و قلنا أنّ المعلّم يبدأ بتحفيظ الشّباب الألحان السّهلة في البداية، مع ضبط الوزن بالدّف، و منهم من أدخل آلات إيقاعيّة أخرى فيكون الضّبط بالطبلة، و أيّ لحن يتعلّمه المنشد دون ضبط؛ لا يُأخذ بعين الإعتبار على الإطلاق و لا يُعتدّ به، كالذي يقرأ القرآن دون ضبط الأحكام؛ فلا يسمّى " مجوّدا ".

ثمّ يتقن المتلقي أو المنشد لفظ الكلمات و الحروف من أستاذه، لأنّ جمال الإنشاد أو الغناء؛ له علاقة وثيقة بصحّة النّطق و سلامته، و هذه المسألة يغفل البعض عنها، فأحياناً تكون مخارج الحروف غير سليمة؛ و أحياناً تؤكل بعض الحروف، و أحياناً يكون الحرف فيه غمغمة، و أحيانا يقلب الحرف، فبدل أن يقول بعضهم : " رمضان جانا أهلاً رمضان "، يقول : " رمدان جانا أهلاً رمدان "، فهذا لا يصحّ، خاصّة و أنّنا عرب.

خلاصة القول أنّ المعلّم هو الذي ينبغي أوّلا أن يتقن هذه الأمور حتى يستطيع تعليمها لغيره؛ كما ينبغي للمعلّم أن يسمع من التّلاميذ كلّ مقطع يحفّظهم إيّاه، فالبعض أحياناً يغيّر في شكل الجملة اللّحنيّة، و هذا يحصل في بداية أخذ اللّحن الجديد ثم يُضبط نتيجة التّكرار؛ و عند تعليم اللّحن يُؤخذ على درجة متوسّطة أقلّ من الدّرجة التي يؤدّى بها اللّحن في الحفل؛ و ذلك حتى تتسخّن الأصوات تدريجيّاً دون أن تتأثر الحبال الصّوتيّة بالطّبقة الحادّة المفاجئة، و هذا ما نراه في المباريات الرّياضيّة من عمليّة الإحماء قبل البدء لتنشيط العضلات و المفاصل و الأربطة للإستعداد للجهد الكبير أثناء العمل الجدّي.

إذن التّعليم و " البروفات " تكون درجة اللّحن فيهما أقلّ منها في الحفل، و قد التقينا في مسيرتنا مع بعض المنشدين غير المتمرّسين من يجهدون أصواتهم في بداية الحفل فيتعبون قبل نهايته، فينبغي على المعلّم أثناء التّحفيظ أن يخبر المتعلّم عن اسم المقام الذي صيغ منه اللّحن و يعطيه فكرة عنه و ذكر درجات سلّمه و الأفضل أن يكتب الطّالب تلك الدّرجات على دفتره مع كتابة كلمات الأنشودة، و كتابة اسم الميزان بدمّاته و تكّاته و سكتاته، و عدد أزمنته، فمثلا

إذا كان " سماعيّا ثقيلا " و سرعته بطيئة كتب عشرة على أربعة " 10 / 4 "؛ فالعشرة هي مجموع الأزمنة أمّا الأربعة ترمز للسّرعة البطيئة؛ و إذا كان الميزان " سماعيّا ثقيلا " أيضا لكن له سرعة أكبر من الأوّل؛ فيكتب عشرة على ثمانية " 10 / 8 ".

أمّا الذين يشتغلون بالموسيقى فلهم كتابتهم الموسيقيّة الخاصّة بهم، و يجب على المعلّم أن يذكر اسم كاتب النصّ الشعريّ إن كان معروفا، و كذلك اسم الملحّن إن كان معروفا، و إذا لم يعرف يقول : " تراثا "؛ و منهم من يقول : " قديم ".

أذكر نكتة جرت معنا عندما كنا ننشد موشح : " الغصن إذا رآك مقبل سجدا "، و فيه مقطع يقول : " فالعصمة لا تكون إلاّ لنبيّ "، لاحظت أنّ ابني " محمّد " - و كان ينشد معنا - يقول : " فالعصمة لا تكون إلاّ لأبي " !؛ فسألته بعدها أن ماذا تقول ؟!.

قال : " نعم فالعصمة بيدك لا بيد أمّي فهي لا تستطيع أن تطلّقك، بينما أنت تستطيع " !؛ فضحكنا و صحّحت له الكلمة.

- 22 -

قلنا أنّ أحسن طريق لذلك؛ هو مصاحبة أستاذ عليم بهذا الفنّ، ملمّ بجوانبه، يتعلّم منه هذا المنشد الألحان بحيث يكون أداؤه طبق الأصل عن أستاذه حتى يظنّ السّامع أنّ صوتيهما صوت واحد، و هكذا سائر أفراد الفِرقة، و أحياناً تسمع تفاوتاً بين أصوات بعض الفِرق؛ فذلك بسبب نقص مستوى الضّبط عند بعض الشّباب، لعدم توفّر الإحساس التامّ بالجملة اللّحنيّة، فيكون بعض الخلل في أدائهم، و هذا ما نعاني منه رغم التّنبيه على ذلك.

قلنا كذلك ينبغي معرفة المقام الذي صيغ منه اللّحن، و على أيّة درجة يرتكز، و معرفة الميزان الموسيقيّ و القيام بأدائه من طرف كلّ أفراد الفرقة على حدى؛ للتأكّد من إتقانهم له.

كذلك معرفة كاتب الكلمات إن تسنّى ذلك، بالإضافة إلى معرفة اسم الملحّن أيضا.

كما ذكرنا أنّه يجب التّركيز على سلامة النّطق و إخراج الحروف من مخارجها الصّحيحة؛ و أودّ أن أشير إلى أمر هامّ، فهناك في عالمنا العربيّ لهجات متعدّدة للبلدان العربيّة، فأحيانا تسمع بعضهم يغنّي أو ينشد فلا تكاد تفقه ما يقول، وهذا ممّا يجعل هوّة و حاجزاً بين المؤدّي و المتلقّي؛ و لربما انصرف السّامع عن الإستماع بسبب ذلك؛ بينما عندما تستمع لقارئ من أيّ بلد عربيّ أو إسلاميّ؛ فإنّك تفهم ما يقول و لا يلتبس عليك أيّ حرف أو أيّة كلمة، لأنّ هذا المجوّد نطق الحروف و الكلمات بشكل صحيح و سليم تماما؛ و هذا ما أودّه من جميع الفِرق، و قد يظنّ كلّ واحد أن نطقه سليم و خالٍ من العيوب و يكون الأمر خلاف ذلك.

و ينبغي على المنشد كذلك أن يفهم كلّ كلمة في الأنشودة، فلربما يُسأل من بعض النّاس عن معنى بعض الكلمات، فينبغي له أن يجيب عن ذلك إن هو فهم معنى ما يقول.

سأل الشاعر " أحمد شوقي " المطرب " محمّد عبد الوهّاب " متعمّداً عن معنى جملة وردت في إحدى أغانيه، فقال له : " لا أعرف معناها "، فعاتبه في ذلك قائلا : " كيف تغنّي شيئاً لا تفقه معناه ؟!، و كيف ستتفاعل مع كلام لا تفقهه ؟!.

في إحدى المرّات كنت أنشد و مرّت عبارة من مصطلحات التصوّف، و كان موجوداً أحد طلاّب العلم، فسأل أحد الحضور الشّيخ عن معنى تلك العبارة، و يبدو أنّ هذا الشّيخ لا يعرف مصطلحات الصّوفيّة، و هذا لا يُنقص من قدره أبدا، فلم يجب عن سؤال الشّاب، فاستأذنته : " هل تأذن لي أن أجيبه ؟ "؛ قال : " تفضّل "، فأجبته بكلام سهل يفهمه.

قد تعرّضت أكثر من مرّة لمثل هذا.

كنت أنشد إحدى الأناشيد بحضور شيخ من أهل العلم و مرّت كلمة في الأنشودة،كنت ألفظها بخلاف ما يلفظها جميع المنشدين إطلاقا، لأني أخذتها لغة و لم آخذها تقليداً لغيري، و في هذه المناسبة عندما تقدّم الشيء الصّحيح مخالفاً لغيرك السّائد؛ تبدو كأنك أنت المخطئ؛ فما كان من الشّيخ إلاّ أن قال بلطف، لماذا لفظت الكلمة هكذا ؟!.

قد أكون هنا أثرت فضول إخوتي القرّاء لأن يعرفوا ما هي تلك الكلمة ؟!.

يقول المقطع من أنشودة :

يا حادي سر رويدا فأنخ يا حويدي العيس و انزل طيبة بالتقديس

فالمنشدون يقولون : " حويدى " بالألف المقصورة؛ و أنا نطقتها " حويدي " بالياء، فلمّا خطّأني في ذلك صار الموقف محرجا، فإن سكتّ فمعنى ذلك أني اعترفت أني مخطئ، و إن جئت بالدّليل على صحّة لفظي فقد أحرجت الشيخ أمام الناس.

قلت في نفسي : " أدافع عن موقفي بلطف "، فقلت للشّيخ : " كلمة قاضي؛ ما تصغيرها ؟ "؛ قال : " قويضي "؛ قلت كذلك كلمة : " راعي " فإنّ تصغيرها : " رويعي " و كذلك كلمة " حادي " تصغيرها " حويدي "، فاقتنع بكلامي.

- 23 -

إذا قرّرت أن تكون محترفاً في الإنشاد، أي تجعله حرفة تتكسّب منها فينبغي عليك أن تطوّر نفسك باستمرار لأنه بحر خضمّ و السّابحون كثيرون.

و إذا أردته هواية فحسب؛ بسبب الدّراسة أو عندك عمل يأخذ كلّ وقتك أو جزء منه فالأمر يختلف، و أنت من يقرّر ذلك و يقدّره أكثر من الآخرين.

و قد تكلّمنا عن الخطوات التي ينبغي عليك القيام بها سابقا.

أنت الآن أصبحت سائراً في هذا الطّريق و قد حفظت عدداً كبيراً من الأناشيد و انتبه إلى أن تكون عن جميع المناسبات الدّينيّة و الإجتماعيّة؛ و ربما الوطنيّة في بعض الأحيان؛ فهل تذهب إلى عرس مثلاً و تنشد للحجّ ؟؛ إلاّ إذا جاء العرس في موسم الحجّ؛ و هل تذهب إلى حفل في مسجد مثلاً لإحياء ذكرى مولد النّبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم منشداً عن رمضان على سبيل المثال ؟، هذا لا يليق بالمنشد، إذ يجب عليه أن ينشد في كلّ مناسبة ما يناسبها من الأناشيد الجماعيّة و الفرديّة كذلك على حدّ سواء، و هذا ما يسمّيه العلماء و أهل الذوق " أدب الوقت "، فإنّ لكلّ حال مقاله.

مرّة كنت في حفل بمناسبة معيّنة و كان حاضراً منشد هاوٍ فكلّفناه أن يفرد فأتى بأبيات غير لائقة بالجوّ العامّ؛ فعاتبه بعض الحضور على مرآى و مسمع الحاضرين فأخجله أمامهم.

إذن يا أخي لا تتصوّر أنّ الأمر بهذه البساطة؛ فهناك مستمعون يحصون عليك حركاتك و سكناتك؛ لباسك؛ تصرّفاتك أثناء الحفل، إضافة إلى أناشيدك و يراقبونك في كلّ شيء من حيث تدري أو لا تدري.

مرّة في أحد الأعراس عملت وصلة من مقام " الصّبا " و عدّدت فيها الأناشيد، و بعد نهاية الحفل جاء إليّ أحدهم و قال لي بلطف : " لقد أكثرت من مقام الصّبا و أنت تعلم أنّ الصّبا مقام فيه الحزن؛ و نحن في فرح فكان الأجدر ألاّ

تطيل فيه "، معه حقّ، لذلك؛ يجب ألاّ نستهين بالجمهور مطلقا؛ بل نتوقّع منه كلّ معرفة و علم و تذوّق و نقد لما نقول.

طيلة حياتي أتعامل مع الجمهور على هذا الأساس، و مرّة نبّهت أحد المنشدين إلى كلمة كان يقولها خطأ، فلمّا دللته على الكلمة الصّحيحة لم يتحمّس لذلك؛ و كنت أظنّه سيتحمّس، قال لي : " و هل تظنّهم يفهمون ما نقول ؟! ".

نعم بالنّسبة لي؛ أعتقد اعتقاداً جازماً أنّ الجمهور بمجموعه لا يفوته شيء ممّا نقول سلباً أو إيجابا.

مقاربة آيديولوجيّة : " الإحترافيّة " مصطلح في الفكر الإنشاديّ الحديث يختلف عنه في " مدرسة التتابع " بحيث يُنظر إليه على اعتباره الأخذ بالعلم و ليس بالزّمن أو بالكسب المالي، فإذا أخذت بالعلم و لو شيئاً قليلا؛ فإنّك على الطريق المستقيم، لأنّ العلوم مفاتيح الوجود.

- 24 -

ذكرنا سابقاً عدداً من الأمور، مثل حفظ الألحان المتنوّعة مع معرفة ضروبها، و يكون ذلك بالضّرب على الدّفّ أو بالضّرب باليد، و معرفة مقامات تلك الألحان، و معرفة من أيّة درجة تبدأ تلك الألحان، و التمرّن على أداء سلّم كلّ مقام صعوداً و نزولاً حتى تُضبط الأبعاد، و إذا لم تضبط فسيحصل النشاز.

ثمّ ركزنا على صحّة نطق الحروف و الكلمات و فصاحة النّطق، و ركّزنا على تنويع الأناشيد حسب المناسبات التي ستنشد فيها، و قلنا بضرورة معرفة كاتب النصّ و ملحّنه، و معرفة القالب الذي عُمل منه ذلك اللّحن، هل قالبه على سبيل المثال : " الموشح " ؟، أم " الطقطوقة " ؟، أم " القصيدة " ؟، أم " الدّور " ؟، أم هل هو من " القدود " ؟، أي عُمل نسخة طبق الأصل عن لحن سابق و ما أكثر ذلك في الإنشاد ؟.

مثلا لحن " أيّها المشتاق لا تنم " عُمل نسخة طبق الأصل عن الأغنية الشّعبيّة " قدّك الميّاس يا عمري "، أمّا اللّحن " من راح الحب إشرب و اسقيني " فعُمل على لحن " آه يا حلوّ يا مسلّيني "، ... إلخ، و القائمة طويلة جدّا.

و نجد كثيراً من المنشدين يملكون أصواتاً جميلة، و منهم مشهورون، تُجرى معهم أحياناً مقابلات تلفزيونيّة أو إذاعيّة أو صحفيّة، و يسألون عن بعض أمور الفنّ، فلا يعرفون الإجابة، أو لا يستطيعون شرح هذه المسائل في ثقافة الفنّ، لأنهم ظنّوا أنّ الفنّ مجرّد صوت جميل يحفظ و يؤدّي فقط لا غير، و هذا خطأ.

و هناك مطرب شهير يقول في قصيدته المرتجلة :

يا من يرى أدمعي تنهل كالدّيم	من مقلتي و جسمي زائد السّقم

بالنسبة للعامّة، فإنّ الأداء في غاية الرّوعة و الجمال، إذ أنّ هذا البيت قاله ذاك المطرب بنفَس واحد، و من جوابٍ عالٍ من مقام " الرّاست "، و ختمه بقفلة " حرّاقة " كما يقول الموسيقار " محمّد عبد الوهّاب "، إذن هو في نظر العوامّ شيء

جميل مهيّج.

لكن في نظر أهل المعرفة و التذوّق الفنيّ؛ فهذا الأداء بهذه الطريقة يُعتبر فاشلاً و منافياً لواقع الحال، فالشاعر يقول أن دموعه تنسكب كالمطر؛ و أن جسمه أصبح ضعيفاً نحيلاً بسبب فراق محبوبه، فهذا المعنى الحزين لا ينسجم معه ذاك الأداء الطّربيّ المفعم بالفرح و التّفائل و النّشاط.

إذن خلاصة القول؛ يجب أن تكون هناك ثقافة فنيّة عند المنشد حتى لا يقع في مثل هذه المطبّات.

مقاربة آيديولوجيّة : ما يُؤسف له بشدّة أن نسمع منشدين لا يعرفون شيئاً في الفكر الإنشاديّ؛ يضعون أنفسهم في حرج أمام الصّحافة بسبب عجزهم عن الحديث في أمور الإنشاد، لا يعرفون حتى تعريفاً لما يمارسونه؛ لهذا تجد تصريحاتهم سطحيّة جدّا تعكس مستواهم الهزيل من المعرفة، رغم أن لهم أصواتاً سليمة و قويّة و حتى وسامة تساعدهم في إيصال رسائلهم على الطرف الآخر.

- 25 -

نجمل ما ذكرناه سابقا :

1 - أخذ هذا الفنّ الدّقيق عن أستاذ متخصّص.

2 - العزم و الجديّة في تعلّم هذا الفنّ، لأنّ كثيراً من الشّباب صرفوا أوقاتاً كثيرة و ثمينة في تحصيله، ثم لمّا بدأت الشّجرة تؤتي أكلها؛ تركوه و انصرفوا عنه، فضاعت تلك الجهود، و كم مرّ علينا من هؤلاء ؟.

3 - الإهتمام بسلامة النّطق و صحّة مخارج الحروف.

4 - البدء بحفظ ألحان التراث؛ الأسهل ثمّ التّدرّج إلى الأصعب.

5 - معرفة المقام الذي صيغ منه اللّحن الذي حفظناه، و معرفة درجات سلّمه، و معرفة درجة ركوزه، و تطبيق ذلك بالصّوت صعوداً و نزولاً مرّات عدّة ليخزّن في الذاكرة و تألفه الأذن.

6 - معرفة ميزان اللّحن، و تطبيق ذلك بواسطة الدّف أو بضربه باليد و عدم الإعتماد على السّمع فقط.

7 - معرفة قالب اللّحن، هل هو من القدود أو طقطوقة أو قصيدة أو موشّح أو دور ؟ ... إلخ.

8 - معرفة مضمون كلمات اللّحن، فإذا كان مناجاة لله سُمّي " ابتهالا "، و إن كان في مدح نبيّ الله و رسوله صلّى الله عليه و آله و سلّم سمّي " مديحا "، و إن كان في ذكر بطولات و مآثر الوطن سُمّي " وطنيّا "، و إن كان في ذكر المحبوب أو وصفه و التشوّق له كان " غزليّا "؛ إلى آخر ذلك، إذ يجب أن يكون عند المنشد هذه الثقافة الضروريّة، و ليس أن يحفظ ما هبّ و دبّ، و ينشد في مناسبة الحجّ عن رمضان، أو في مناسبة العرس عن الموت و عذاب القبر ؟.

9 - أن يختار المنشد الألحان ذات الكلمات الجميلة و المعاني الرّاقية، و التي ليس فيها محظور شرعيّ، أو ما يخالف

العقيدة الإسلاميّة.

أذكر أنّنا كنا ننشد قديماً أنشودة تقول :

دع طرق الغيّ فالدّنيا فيّ ما الكون الاّ القيّوم الحيّ

لاحظ عبارة " ما الكون الاّ القيّوم الحيّ "؛ يعني أنّ الكون هو الله، و الله هو الكون، يعني أنّ هناك خالقاً و ليس هناك مخلوق، و هذه نظريّة ابتدعها بعضهم و سمّوها " وحدة الوجود " و هي تخالف عقيدتنا.

10 - يجب تدريب الصّوت و معرفة مكمن ضعفه؛ هل هو في القرار أم في الجواب ؟، أم أنّ الصّوت متوازن في المنطقتين ؟؛ فيقوم المنشد بأخذ درجة موزونة من " الدّيابازون " أو من أيّ مصدر آخر و لتكن درجة " دو " مثلا؛ و ينزل إلى " سي " ثمّ إلى " لا " ثم إلى " صول " في الدّيوان الغليظ، ثم يصعد إلى " دو " التي بدأ منها، ثمّ يصعد : ري؛ مي؛ فا؛ صول؛ لا؛ سي؛ دو الجواب " الكردان "، ثمّ ينزل تدريجيّا إلى " صول ".

و يكرّر هذا التّمرين لمدّة لا تقلّ عن 10 دقائق كلّ يوم، و يحاول أن يزيد في درجات الجواب و القرار شيئاً فشيئا، فبهذا التّمرين يقوى صوته و تزداد مساحته شرط المداومة على ذلك.

مقاربة آيديولوجيّة : توجد 6 أصناف في الفكر الإنشاديّ الحديث تسمّى " الحقول الإنشاديّة "؛ كلّ حقل له اهتمامات خاصّة و هي : الطّفوليّات - النّسويّات - الأفراح - الوطنيّات - العقائديّة - المدائح.

يجب أن تكون طريقة تدريب الفِرق الإنشاديّة على يد مشرف متخصّص يعرف ماهية الإنشاد و قواعده و حقوله و ليس أستاذ موسيقى فقط؛ و المشرف هو أحد الفاعلين 5؛ تتوفر لديه المعرفة بما ينبغي فعله، فهو الموجّه لأفراد فرقته و معلّمهم.

لمزيد من المعلومات الضرورية يُرجى الإطلاع على كتاب " مدخل إلى فنّ الإنشاد " النسخة المنقحة، جهاز أنسام الصّباح للتربية الفنية بالاشتراك مع شبكة المجرّة الاخباريّة إصدار جانفي 2011.

- 26 -

ذكرنا في الحلقات الماضية أموراً كثيرة، و الحقيقة أنّ بناء شخصيّة فنيّة ليس بالأمر السّهل مطلقا، إذ يتعلّق بأمور كثيرة و كلّها تحتاج إلى تمارين دائمة و ممارسة حثيثة؛ في النّطق و في الأداء و في المقام، و في الوزن و في ضبط النّفَس؛ أمور كثيرة أخرى لا يتّسع لها المقام.

و قد نصحت بالسّماع لمشاهير المنشدين للإستفادة من طرق أدائهم، و عدم الإقتصار على 1 أو 2 أو 3، بل الإكثار من ذلك حتى يستطيع المتعلّم المقارنة بين من يسمع لهم، و أخذ أحسن شيء من كلّ واحد منهم، فما من منشد جمع كلّ الكمال و الجمال، و لأضرب مثلا على ذلك؛ دلّني على نوع من الفاكهة جمعت كلّ المذاقات، أو دلّني على زهرة حوت جميع الأشكال و الروائح و الألوان، لن تجد ذلك.

و المنشد المبتدئ يجب أن يكتشف شخصيّة صوته و بصمته حتى يطوّرها، و يعمل على بلورة تلك البصمة.

كثير من المبتدئين يعجَبون بشخص ما من أهل الفنّ مطرباً كان أو منشدا، فيركّزون جهدهم و اهتمامهم على تقليد صوته أو أسلوبه أو حتى حركاته، فيكونون نسخة طبق الأصل أو نسخة مشوّهة عن ذلك الأصل، و بذلك يضيّعون شخصيّة أصواتهم و بصمتها الحقيقيّة.

كنت أعرف فنّاناً في " حلب " كان يقلّد فنّاناً مشهوراً لعدّة سنوات، ثمّ استمعت إليه بعدها؛ فإذا به أصبح يقلّد فنّانا آخر؛ فاستحييت أن أساله عن تحوّله من تقليد شخص إلى شخص آخر.

إنّ هذا و أمثاله يرضى أن يكون مثل الظلّ يمشي مع صاحب الظلّ الأصليّ، الذي يتباهى بأنّ كثيراً من النّاس يقلّدونه، و هو لا يقلّد أحدا.

لذلك أنصح الشّباب الذين يريدون أن يشقّوا طريقهم في عالم الفنّ؛ أن يستمعوا لأهل الإبداع دون أن يقلّدوا

أصواتهم و حركاتهم، و لا مانع من تقليد جملهم اللّحنيّة ببصمة أصواتهم الخاصّة بهم، التي خصّهم الله بها.

سألني أحدهم أن كيف يستطيع أن يجعل في صوته بحّة ربما سمعها في صوت بعض المنشدين ؟، و سُئلت أكثر من مرّة عن كيفيّة جعل " عُرب " في الصّوت.

كلّ هذا خطأ و غير جيّد؛ أن نجعل صوتنا صناعيّا و متكلّفاً و غير حقيقيّ، كما تصنع كثير من الفنّانات هذه الأيّام بأنفسهنّ، من تغيير أشكالهنّ و هيئاتهنّ؛ فتكون النّتائج في الغالب عكسيّة و فاشلة و العياذ بالله.

- 27 -

من المنشدين من ينشد الجماعيّ و الفرديّ، و منهم من ينشد الجماعيَّ فقط " كورال ".

الصّنف الأوّل هم رؤساء الفِرق، و بعض أفراد الفِرقة أصحاب الأصوات الأجمل في المجموعة، و هناك فِرق جميع أعضائها يفردون، و تطوير " المفرِد " لفنّه يختلف عن تطوير " الكورال ".

أمّا " الكورال " فمطلوب منه إتقان الألحان، حسب ما يريد رئيس الفِرقة لتوحيد الأداء، و كذلك حفظ كلمات اللّحن، بحيث لمّا يكمل الفرديّ المقطع؛ يدخل " الكورال " كلّهم سويّة وفق الميزان الموسيقيّ بحزمة صوتيّة واحدة دون إبطاء أو تكاسل كما نرى في بعض الفِرق الضّعيفة؛ و كم من فرقة أدّت ألحاناً بسيطة و شعبيّة أحياناً بانسجام و إتقان كبيرين؛ فكسبت إعجاب الجمهور و احترامه.

إذن؛ فالإتقان و الإنسجام عنصران مهمّان لنجاح الفِرقة، و الواقع يؤكّد كلامي.

أمّا تطوير " المفرِد " لمستواه الفنيّ؛ فيختلف عن " الكورال "، ففي أدائه القصيدة أو الموّال سيواجه الجمهور بصوته منفرداً دون تغطية من أصوات المجموعة، و هذا الأمر يحتاج إلى الشّجاعة الفنّيّة و النّفسيّة، و قد سمعنا عن مشاهير يرتجفون هلعاً من مواجهة الجمهور؛ و منهم حتّى من صرّح بذلك.

المنشد الفرديّ؛ يجب أن يعدّ نفسه إعداداً فنياً قويّاً حتى يقوى على ذلك، فأوّلا يجب أن يمتلك جمال الصّوت، ثانياً يجب أن يمتلك طول النّفَس و لو بشكل متوسّط على الأقل، و ثالثاً يجب أن يختار الكلمات الجميلة المعبّرة التي تلامس مشاعر و عواطف الجمهور، و رابعاً يُحسن استعمال المقامات، فيعطي للمعنى الحزين مقامات مثل " الصّبا "، و " الحجاز "، و " الحسينيّ "، و يعطي للمعنى المفرح مقامات " البيات "؛ و " السّيكاه "؛ و " الجهاركاه "، و يعطي لمعاني القوّة و الفخر أو الغضب مقام " العجم "، و يعطي لمعاني الرّومانسيّة و الحبّ و الحنين و العاطفة مقامات " الكرد " و " النهاوند " و " الحجاز كار "، ثمّ يعطي لمعاني الطّرب و التمكّن النفسيّ و الوجد مقام " الرّاست "، فلا يصحّ أن أعبّر عن الفرح و النّشاط

بالصّبا، أو الحزن و اللّوعة بالبيات؛ على سبيل المثال.

مرّة كانت المطربة " أمّ كلثوم " تحضر مأتماً لعزيز عليها مات، و كان القارئ قد وصل في تلاوته إلى عذاب أهل النّار و أهوال الجحيم؛ و يؤدّي هذه المعاني المخيفة بمقام " البيات " و يستعمل جمله المفرحة المتفائلة، قالت له في نهاية المجلس باللّهجة المصريّة : " لو كانت النّار زي ما انت عبّرت عنها كانت تبقى حاجة كويسه أوي "، فخجل القارئ، ثمّ عرف أنه استعمل المقامات في غير أماكنها الصّحيحة.

إذن؛ فهذا الفنّ ليس مجرّد صوت جميل فحسب، و مقامات نقلبها و نتباها أنّنا في التّفريد عملنا مثلا 10 أو 15 مقاما، فهذا ليس هو مقياس الإبداع، لذلك فإنّي أعتبر ثقافة المنشد مقدّمة على كلّ هذا.

عندما أراد " محمّد عبد الوهّاب " تلحين قصيدة " الكرنك " - معبد فرعوني قديم - ؛ ذهب إليه و مشى في أطلاله مستوحياً المعاني و الأخيلة و الصّور، و كذلك " زكريّا أحمد " كان يلحّن أوبريت مسرحيّة غنائيّة؛ و فيها مشهد يصوّر الجنّ و قد ظهروا للبطل فجفل منهم، فلأجل استيحاء هذا الحال؛ ذهب ليلاً إلى أبي الهول و الأهرامات قبل أن تكون هذه الأضواء و العمران، آخذاً معه النصّ الشعريّ؛ و مصباحاً صغيراً ليقرأ النصّ و هو يرتعد من الخوف، و كأنه بين الجنّ، و فجأة انقضّ عليه الحارس ظانّاً أنه يريد سرقة الآثار ليبيعها، و قال له باللّهجة المصريّة : " يا لله بينا عل القسم "؛ فقال له : " أنا زكريّا أحمد الموسيقار المعروف و انا جاي ألحّن "، فقال له : " لحن إيه و زفت إيه ؟ "، و ساقه إلى المخفر مقيّدا خوفا من هروبه، و في المخفر تعرّفوا عليه فاعتذروا منه.

- 28 -

المثالية و الواقعية.

لتقريب هذا المعنى لإخوتي و لأخواتي؛ أسوق هذه القصّة المختصرة لأخذ العبرة و فهم منهج الإسلام.

شابّة مات عنها زوجها و ترك لها عدّة أولاد، فاحتضنها أهل زوجها مع أولادها، وكان هؤلاء يعيشون في غربة بعيدين عن الوطن؛ و مرّت بضع سنوات و هم على هذا الحال، والد زوجها يأوي إلى امرأته ليلا و لا شيء ينغصّ عليه، و هذه الشابّة تأوي إلى ذكرياتها ليلا؛ تناجي طيف زوجها المتوفى رحمه الله برحمته، و تذرف الدّموع و تقول : " ذهب الزّوج و المؤنس؛ الصّديق و الملاذ و الحامي، و أمامي أطفال أيتام يفتقدون أباهم و يسألون أمّهم دائماً؛ أين بابا ؟ و متى سيعود ؟ ".

و هي تعلّلهم و تصبّرهم و تزرع لهم الآمال في صحراء الآلام، و تمضي كلّ يوم بيومه، لا تريد أن تفكّر و تتطلّع إلى المستقبل البعيد الذي تراه قاتماً مظلما، و تنظر إلى من حولها من الشابّات و الصّبايا اللّواتي في مثل عمرها؛ و كيف يعشن مع أزواجهنّ آمنات مطمئنّات سعيدات، تبدو السّعادة على وجوههنّ و من خلال كلامهنّ، و يجيء الخاطبون إلى هذا الرّجل؛ والد الزّوج؛ يطلبون منه يد هذه الشابّة الأرملة على كتاب الله و سنة رسوله الكريم صلّى الله عليه و آله و سلّم، فيردّهم ردّا قبيحا، بعصبيّة و عنجهيّة قائلا لهم : " إنّ كنّتي - أي زوجة ابني - رافضة الزواج من بعد ولدي، و أنها نذرت نفسها لتربية أبنائها؛ إلى آخر هذه المثاليّات الخارجة عن الدّين و عن فطرة الإنسان التي فطره الله عليها، و يضيف في خطبة عصماء بموقف رجوليّ و صوت يلعلع : " نحن في عُرفنا أنّ المرأة إذا مات زوجها؛ إعتكفت في بيتها حتى تموت، و غير هذا ما عندنا؛ إنتهى الموضوع ".

و ربما يطرد الذين جاؤوا للخطبة، و تلك المسكينة تسمع هذه الخطبة العصماء من وراء الجدران و تفكّر بالمصير الأسود الذي ينتظرها، و كم من مرّة سمعت حماها يقول : " إنّ التي تخرج عن عاداتنا هذه مصيرها الذّبح بالسّكين ".

تمضي الأيّام و إذا بشابّ متديّن اشتغل عند هذا الحمو المتسلّط المثاليّ جدّا جدّا؛ الذي يريد أن يجعل من كنّته

راهبة في صومعة؛ أو قدّيسة في كنيسة اقتداء بالسّيّدة " مريم " العذراء عليها السّلام.

هنا؛ أريد أن أتساءل ببراءة لو أنّ هذا الحمو صاحب القيم الصّارمة و المبادئ العظيمة؛ ماتت زوجته؛ هل سيبقى يندب الأطلال و يعيش على الذكريات و طيف الخيال ؟؟.

قطعا لا.

إذن؛ لماذا تريد أن تطبّق المثاليّة على غيرك و أنت تعرف أنّك لو تعرّضت لمثل هذا لن تصبر ؟!.

إشتغل هذا الشابّ المتديّن عند الحمو بإخلاص و تفانٍ في مشغل حرفيّ بسيط، و مرّت أيّام فكان الحمو ينادي هذا الشّابّ : " تعالَ يا فلان خذ مفاتيح السّيارة و أوصل زوجتي و كنّتي إلى مكان كذا "، فيوصلهم ثمّ لمّا يقضون المهمّة يعيدهم؛ و تكرّر الأمر؛ و كان أحياناً يوصل هذه الشابّة مع أولادها دون حماتها، و الشابّة محجّبة و متديّنة، فيحدث أن يشتري للأطفال لعباً أو حلوى جبراً لخاطرهم؛ و كسباً للأجر.

مرّة بعد مرّة يجري حديث بريء و عفويّ بينه و بين الشابّة، و لربما طفح بها الكيل فنفّست عن هذا الكبت الرّهيب و كأنها سجينة في الغرف المظلمة عند الطّواغيت، و يرقّ قلب هذا الشّاب لحالها فقال لها : " لا عليك سأخلّصك من العذاب و أدخل البيت من بابه متقدّما لخطبتك من عمّي فلان "، ظانا أنّ له حظوة خاصّة عنده تختلف عن الآخرين الذين تقدّموا لخطبتها، قالت له : " إنّ عمّي - أي والد زوجي - رافضُ الفكرة رفضاً تامّاً و ما أظنّ أنّه سيلبّي طلبك "؛ فقال لها : " إنّه يعزّني جدّا و يقول للنّاس هذا بمنزلة ابني ".

تشجّع ذات يوم و رأى الحمو في حال رائق؛ فطلب منه يد الشابّة بكلّ أدب و احترام، فما شعر إلاّ و الصّفعة المدويّة تنزل على وجهه كالصّاعقة، و تتلوها أخرى و أخرى و هو يحاول تحاشي ذلك، و تنهال الشّتائم و الألفاظ النّابية التي يترفّع الإنسان عن ذكرها، و يُطرد من مكان العمل شرّ طردة، و هو لو أراد أن يدافع عن نفسه لحطّم ذلك المثاليّ تحطيما، و لكن تربيته الدّينيّة أبت عليه ذلك.

عرفت الشابّة ما حدث، فحزنت على الشابّ الذي خسر عمله و طعامه و مبيته و ذهب ليبحث عن مكان يؤويه، بعد أن اتّصل بها هاتفيّا قائلا : " جئت البيت، و لكن عمّك الذي يعيش في جاهليّة؛ و يدّعي تطبيق الإسلام و الورع ضربني و طردني؛ و إني قرّرت أن آتي البيت هذه المرّة من شباكه فهل أنتِ معي ؟ "، قالت : " نعم ".

إتّفق مع عدد من أصحابه العقلاء المتديّنين على ترتيب أمر الزّواج، و خرجت الشابّة من البيت بحجّة زيارة بعض الصّديقات و ذهبت معه و معهم الشّهود إلى أحد العلماء، فأجرى لهما عقداً شرعيّاً ثمّ عادت إلى بيت الحمو و كأن شيئا لم يكن؛ و كلّما سنحت لها فرصة تلتقي به في مكان معيّن فيأخذها إلى بيت استأجره؛ ليُمضيا فيه بعض الوقت في حدود المتاح، و صار الشّاب يرتّب أمور السّفر حتى لا تتعرّض المسكينة للذبح بالسّكينة على يد صاحب المُثل العليا؛ و الكرامة و المبادئ الصّارمة.

و حصل الشابّ على الفيزا؛ له و لها و للأولاد، و حجز بطاقات السّفر بالطّائرة، و تحدّدت ساعة الصّفر عند السّحور في ليلة من ليالي رمضان؛ فوضعت الشابّة المنوّم في الشّاي للمثاليّ و زوجته، و لمّا غطوا في سبات عميق؛ أخذت كلّ الأولاد و الملابس و نقودها و انطلقت مع زوجها إلى المطار إلى بلاد الله الواسعة حيث استنشقت هواء الحريّة لأوّل مرّة بعد سقوط جدار " برلين ".

إستيقظ المثاليّ جدّا و الصّارم جدّا و زوجته المسكينة ضحى النّهار؛ فصار ينادي على كنّته و لكن ليس من مجيب؛ فقام هو و زوجته يبحثان في أرجاء البيت عن الشابّة و أولادها، و لكن لا أحد منهم.

لا توجد ملابسهم و لا أيّ شيء من آثارهم، و كأنّ صاعقة نزلت بالمعتوه، و نظر إلى الشارع إلى السّيارة فلم يجدها، حيث استعملها الشابّ و تركها في إحدى الشّوارع، و أبلِغت الشرطة بالواقعة فاتصلوا بالحدود و بالمطار، فتبيّن أنّ الجميع غادر إلى خارج القضبان و الغرف المظلمة الرّطبة العفنة.

حاول المثاليّ أن يعرف في أيّ بلد هم، ليذهب و ينفّذ الحكم القاسي الذي رآه عادلا فيها، و لكن جهوده باءت بالفشل و أكل يديه ندامة؛ عاش مقهوراً مدحوراً معذبّا حتى مات هو و زوجته.

- 29 -

نتابع كلامنا في هذا الموضوع الهامّ، و النّاس منقسمون بين مثاليّ يهتمّ بالمظهر و الشكل؛ و بين واقعيّ يهتمّ بما يحقق المصلحة و يدرأ المفسدة.

كلّنا؛ ربما قرأ في القرآن الكريم قصّة نبيّ الله " موسى " عليه الصّلاة و السّلام حين قتل رجلاً من قوم " فرعون "، و فرّ إلى منطقة " مدين " خوفاً من الإنتقام، و في " مدين " ملأ الماء لفتاتين هما بنتا نبيّ الله " شعيب " عليه و على رسولنا الصّلاة و السّلام، دون معرفته بذلك؛ و حين علم نبيّ الله " شعيب " بهذا الأمر؛ طلب من إحدى ابنتيه أن تذهب إلى ذاك الرّجل الذي خدمهم و تدعوه إلى بيتهم حتى يكرمه أبوها جزاء تلك الخدمة التي أسداها لهم، و هذه أخلاق الكرام إذا قدّم لهم أحد خدمة؛ سارعوا بمكافأته بشتّى الوسائل.

لمّا جاءه " موسى " قال له " شعيب " عليهما السّلام : " حدّثني بقصّتك "، فرواها له، و البنتان جالستان تسمعان القصّة؛ هنا تحرّكت فطرة الأنوثة و ميلها الطبيعيّ العفويّ البريء إلى الرّجل؛ فنطقت إحداهما بدافع من تلك الفطرة السّليمة قائلة لأبيها - ذي العقل الرّاجح و الخلق الكريم - : " يا أبتِ استأجره إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين "، و هنا دور صاحب الشّأن و القرار و مدى فهمه للأمور، و بُعد نظره في المآلات و العواقب، فماذا كان موقفه من طلب ابنته تشغيل هذا الرجل عندهم ؟، و ماذا قال لذلك الضّيف ؟.

قال له : " إنّي أريد أن أنكحك إحدى ابنتيّ هاتين على أن تأجرني ثماني حجج ".

الحقيقة أنّ الأنبياء لهم نظرة خاصّة إلى الأمور و ليس كما ينظر الجاهلون إليها، و لنتفكر في قول سيّدنا " محمّد " صلّى الله عليه و آله و سلّم : " إذا أتاكم من ترضون دينه و خلقه فزوّجوه، إلاّ تفعلوا تكن فتنة في الأرض و فساد عريض "، و في رواية : " و فساد كبير ".

المعنى هو ألاّ تصعّبوا أمر الزّواج على الشّباب، من حيث تغلية المهر على الذي هو حديث عهد بالمال و العمل و لم

يكوّن نفسه بعد التكوين الماديّ الضّخم، و إذا شدّد هذا عليه و ضيّق هذا عليه، و لم يقبل أحد أن يزوّجه فلربما اختار الطريق السّهل و المتوفر جدّا لقضاء شهوته و إرواء غريزته و نكون نحن شركاؤه في الإثم، و عدا ذلك فإنّ الفتيات سوف يصبحن عانسات؛ و كثير جدّا منهنّ أصبحن يبحثن عن إرواء الغريزة كما أرواها الشّاب الطّالب للسّتر، و لكننا طلبنا منه مهراً باهظاً و شقّة مفروشة و وظيفة مرموقة جدّا و كذا و كذا فهرب و قرّر الإنحراف و كذلك الفتاة.

أ ليست هذه جاهليّة و جريمة و تخلّفاً في الفكر ؟!.

الغريب في الأمر أنّه عندنا القرآن الكريم و السّنة، و نملك مشعل النّور و الحضارة، إلاّ أنّ أكثرنا للأسف لا يعرف من الدّين إلاّ اسمه، و لا يعرف من الشّرع إلاّ رسمه.

ماذا كان موقف نبيّ الله " شعيب " ؟، لم يقل لنبيّ الله " موسى " : " أنا أريد أن تشتغل عندي "، بل قال له : " أريد أن أزوّجك إحدى ابنتيّ "؛ و ذلك ليغلق باب الفتنة الذي أخبر عنه نبيّنا عليه الصّلاة و السّلام، و ليس كصاحبنا الذي صفع ذلك الخاطب و سبّه و طرده؛ أيّة جاهليّة هذه متفشيّة في مجتمعاتنا و فينا كتاب الله قرآننا الكريم و سنّة رسوله صلّى الله عليه و آله و سلّم ؟، و ما يزال الحبل على الغارب؛ و الأمر يزداد سوءاً يوماً بعد يوم.

جاءني ذات يوم شابّ و خطب ابنتي و هو فقير معدم و ليس بيده صنعة، فقلت له : " سأريك البنت و اتفقا بينكما "، و تركت معهما أحد أولادي؛ و خرجت من الغرفة ليأخذا راحتهما في الكلام دون حرج و خجل مني، فإذا به يخرج بعد دقائق و هو يبتسم قائلا : " لقد اتفقنا على كلّ شيء ".

علمت أنّ ابنتي طلبت منه مهراً معجّلاً قدره دينار 1، و مؤجّلاً لا يزيد عن 1000 دينار غير مقبوض، و عاشا في سعادة بالغة جدّا؛ و أنجبا ذكوراً و إناثا، و أصبحا الآن جدّين و أفاض الله عليهما الرّزق و السّعادة.

فهل نتّعظ و نترك المثاليّات و نعيش في الواقع ؟؛ و إلاّ سنقع في أكثر ممّا نحن فيه.

ـ 30 ـ

يُعتبر هذا الموضوع جديداً على بعض الناس، و هو بحاجة لتسليط الضّوء عليه أكثر فأكثر، حتى نعرف حدودنا في هذه الحياة.

نقول أحيانا في كلامنا أنّ فلاناً من النّاس هو مثال الأخلاق، أو نقول أنّه مثال الشّجاعة، أو مثال الكرم ... إلخ.

يبحث له الإنسان في هذه الحياة عن أنموذج كامل يقلّده و يحتذي حذوه و يترسّم خطاه، و كثيراً ما نسمع في المقابلات مع بعض الأشخاص لمّا يسأله مقدّم البرنامج : " من هو مثلك الأعلى ؟ "؛ فيجيب المسؤول : " فلان من النّاس "، و قد يكون شاعراً أو لاعب كرة أو قارئا ... إلخ.

أمّا نحن المسلمون فقد جعل لنا ربّنا عزّ و جلّ قدوة واحدة جعل فيها من صفات الكمال و الجمال ما يعجز البشر أن يزيدوا عليها، أو يسبقوها، ألا و هو نبيّه " محمّد " صلّى الله عليه و آله و سلّم؛ فقال تعالى : " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة؛ لمن كان يرجو الله و اليوم الآخر و ذكر الله كثيرا "، و عصم الله نبيّه عن صفات النّقص و الخطأ، حتى يكون القدوة و الأسوة و المثل الأعلى لكلّ المسلمين، لدرجة أنّ كلامه عليه الصّلاة و السّلام، هو تشريع لنا و وحي من الله على جميع أحواله، سواء في الرّضى أو في الغضب، سواء في بيته مع أهله أو في المسجد مع أصحابه، سواء في الحرب أو في السّلم، و عدّد ما شئت.

قال تعالى : " و ما ينطق عن الهوى، إن هو إلاّ وحي يوحى "، أي أنّ كلامه وحي في كلّ شؤونه عليه الصّلاة و السّلام؛ فكلّ واحد من الصّحابة رضي الله عنهم اغترف من هذا البحر الزّاخر العذب ما قسم الله له، و من جاء بعدهم كذلك.

إنّ الإنسان بطبعه يحبّ أن يُظهر أحسن ما عنده أمام الناس، و هذا شيء طيّب، و قد يكون لهذا الإنسان شيء بينه و بين نفسه لا يريد أن يطّلع عليه الآخرون خجلاً من ذلك الشيء، و هو كذلك شيء طيّب، كما في الحديث : " إذا بُليتم بالمعاصي فاستتروا، فإنّ إعلان المعصية أكبر منها، أو كما قال عليه الصّلاة و السّلام.

و في حديث آخر : " كلّ أمّتي معافى إلاّ المجاهرين ".

أنظر إلى فهم نبيّنا لطبيعة ما جُبِل عليه النّاس من الضّعف و النّقص و الخطأ و التّعثر، حيث قال : " كلّ ابن آدم خطّاء، و خير الخطائين التوّابون ".

إذا كان نبيّنا يعلم حقيقتنا فكيف بمن خلقنا ؟، " ألا يعلم من خلق و هو اللّطيف الخبير "، بلى يعلم كلّ شيء و لا تخفى عليه خافية، و من ادّعى من غير الأنبياء أنّه معصوم و أنّه لا يخطئ فقد كذب على نفسه " فلا تزكّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ".

إنّ ما نحن فيه من نقص و ضعف و خطأ و تقصير لا يعيبنا أبدا، لأنّنا هكذا خُلقنا، فهناك النّفس الأمّارة التي تأمرنا بالسّوء أبدا، و هناك الشّيطان الذي يتربّص بنا ليلاً و نهاراً كي يوقعنا في المعاصي، و هناك رفاق السّوء الذي يحاولون سحبنا إلى الآثام، و نحن بين كلّ هؤلاء نجاهد أنفسنا و شياطيننا و الفتن و المغريات من حولنا، فمرّات نفلح و أحيانا نفشل.

لا عيب في هذا طالما أننا نتوب و نستغفر و نصحو، لكن العيب إذا أخطأنا أو أذنبنا أنّنا لا نبادر بالتّوبة، و في الحديث : " إنّ الله يبسط يده بالنّهار ليتوب مسيء اللّيل، و يبسط يده باللّيل ليتوب مسيء النّهار "، أو كما قال عليه الصّلاة و السّلام، و انظر إلى هذه الآية العظيمة و كلّ آيات ربّنا عظيمة " إنّ الله يحبّ التوّابين و يحبّ المتطهّرين "؛ فكلمة " تواب " معناها أنّ هناك شخصاً يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب و هكذا.

و التّائب غير التوّاب؛ فالتّائب هو من تاب من الذّنب فلم يعد إليه و هذا شيء نفيس جدّا جدّا، و مع ذلك فإنّ الله لم يغلق باب التّوبة أمام من أذنب و تاب و أذنب و تاب، بل أنه يحبّه كذلك بنصّ الآية.

هناك بعض الوعّاظ الذين يصوّرون للمذنب أنّه ارتكب جريمة لا تُغتفر أبدا، بينما رسولنا؛ الرّحمة المهداة؛ يقول لنا : " يُغفر للعبد ما لم يغرغر ".

لا نريد أن يُفهم من كلامنا أنّنا ندعو النّاس إلى اقتراف الذّنوب ثمّ إلى التّوبة حتى يحبّنا الله، بل نحبّ أن نقول للنّاس أنّنا غير معصومين و نحن معرّضون للوقوع في المخالفات أحياناً فلا ينبغي أن نصرّ على ذلك، و هنا يلعب الشيطان لعبته؛ فيقول للجاهل : " أنت وقعت و ليس لك من توبة فإنّ جرمك كبير، فطالما أنّ مصيرك إلى النّار؛ فهيّا تمتّع بلذات الدّنيا، فإنّ النّار لا ملذات فيها ".

- 31 -

سؤال يدور في خاطر كثير من المسلمين، و ربما غير المسلمين؛ هو : " لماذا لا يتدخّل الله و ينصر عباده المسلمين الذين دانوا بدينه، و عبدوه و لم يشركوا معه إلهاً آخر ؟، و هو حاضر ناظر و قويّ لا يُعجزه شيء و لا يغلبه أحد ؟، و هو يرى عباده المؤمنين المستضعفين يُقتلون و يُعذّبون و تُنتهك أعراضهم، و تسلب أموالهم، و تخرّب ديارهم، و يشرّدون في البلاد، و يذوّقون الذلّ و الهوان و كذا و كذا ؟ ".

أ ليس الله موجوداً و قادراً و هو مع المستضعفين ؟؛ فلماذا لا يتدخّل و يُنهي كلّ هذا ؟.

سمعنا مثل هذا السّؤال من كثير من النّاس حتى أن البعض صار يشكّك في الدّين و في الله و في وعده لعباده في النّصر و الفرج.

الجواب بتوفيقه تعالى؛ إنّ سنّة الله تعالى في خلقه قضت أن يُبتلى المؤمن لتُعرف حقيقة إيمانه، فالإيمان ما وقر في القلب و صدّقه العمل، و من سنن الله تعالى أن يمتحن المؤمن على قدر إيمانه، فقد ورد في الحديث : " أشدّكم بلاء الأنبياء ثمّ الصّالحون ثم الأمثل فالأمثل "، فهذا نبيّ الله " يحي " عليه الصّلاة قُطع رأسه و هو وحيد أبيه نبيّ الله " زكريّا " عليه الصّلاة و السّلام، ليكون مهراً لعاهرة تزوّجها ملك كافر.

و هذا أبوه " زكريا " نشر بالمنشار و قُطع نصفين و هو ساكت، و هذا نبيّ الله " يونس " ألقي في البحر و ابتلعه الحوت، أيّاماً و هو في بطنه و ما أدراك ما بطن الحوت ؟؛ حيث الحرارة العالية و الرائحة المنتنة و العصارات المتلفة إضافة إلى الظلمة المخيفة، و الهواء المفقود و الضّغط المختلف في عمق البحر، و هو ساكت صابر ينتظر الفرج حتى ألهمه الله تلك التّسبيحة : " لا إله إلا أنت سبحانك إنّي كنت من الظّالمين "، ففرّج الله عنه.

و هذا نبيّ الله " أيّوب " ابتُلي بالمرض؛ و ذهاب المال و العيال فصبر الصّبر الذي صار مضرب الأمثال به، فشفاه الله و عوّضه ما أُخذ منه.

و هذا خليل الله " إبراهيم " أمره الله بذبح ولده فاستجاب للأمر هو و ابنه " إسماعيل "، و لكنّ السّكين لم تقطع و علم الله صدقهما ففدى ابنه " إسماعيل " بكبش عظيم، و هذا نبيّ الله " يوسف " اتهم بالتعدّي على امرأة العزيز فسُجن سنين طويلة، و قبل هذا كاد له أخوته و ألقوه في بئر و هو صغير؛ فبقي فيه أيّاماً و ليالي مخيفة موحشة، و هذا سيّد الخلق " محمّد " صلى الله عليه و آله و سلم وضعوا على ظهره معدة الجمل المليئة بالقذر و هو ساجد، و أغروا به صبيانهم في الطّائف فرموه بالحجارة و أسالوا دمه الشّريف و هو صابر محتسب؛ بل دعا لهم بالهداية و الخير بدل أن يدعو عليهم، و هو الذي وُلد و لم يجد له أباً إذ كان قد توفي، و في العام 6 من عمره توفّيت أمّه؛ ماذا نعدّد و ماذا نذكر من عذابات أنبياء الله الذين هم صفوة البشر ؟.

طريق الجنة مفروشة بالأشواك بل مفروشة بالأهوال؛ لكنّها بعد ذلك نعيم أبديّ نفيس لا يقدّر بثمن.

هناك طريق أخرى مفروشة بالورود و الرّياحين و الملذّات و المتع الزائلة المؤقتة، و لكن بعدها جحيم مقيم، إنّ الله ليس بغافل عن ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، و ليس بعاجز عن نصرة المظلوم و لكن يريد أن يطهّره من سيّئاته في الدّنيا حتى يذهب إلى ربّه مغسولاً نظيفا؛ أو يريد أن يرفع مقاماته عنده سبحانه إن لم يكن له ذنوب، و يريد أن يمدّ الظالم في طغيانه و ظلمه حتى يصليه ناراً وقودها النّاس و الحجارة.

لنفهم أحكام ربّنا و حكمه كما يريد هو لا كما نريد نحن، فنحن الذين ينبغي أن نسير على مراده، و ليس هو الذي ينبغي أن يسير على مرادنا، و أن نعلم أنّ دوام الحال محال؛ فلا تدوم شدّة و لا يدوم رخاء و الأيّام ستثبت ذلك، و لا بدّ من فرج و نصر طال اللّيل أم قصر.

" ألا إنّ نصر الله قريب ".

- 32 -

كنت قبل قليل أستمع إلى منشد مشهور من إحدى الدّول العربيّة بيني و بينه صداقة، و قلت في نفسي : " عليّ أروّح النفس بصوته و فنّه و معانيه، و يا ليتني لم أستمع إليه كي تبقى صورته الفنّيّة ناصعة في عيني.

كان ينشد قصيدة فرديّة مرتجلة، و ما أدري كيف استطاع أن يجمع كلّ شطر من قصيدة ؟، و ما أدري كيف استطاع أن يجمع كلّ شطر على قافية تختلف عن الأخرى ؟ و ما أدري كيف استطاع أن يجمع كلّ شطر من بحر ؟، حقّاً إنّها موهبة فذّة في الخلط و الجمع، أكاد أجزم أني لم أسمع بمثل هذا في حياتي، و أمّا اللّغة و الإعراب؛ فأحمد الله تعالى أنّ " سيبويه " مات قبل أن يسمع بمثل ما سمعته.

أنا على يقين لو أنّ أحداً سأل هذا المنشد : " كيف كان حفلكم اليوم ؟ ".

لأجاب بكلّ ثقة و أريحيّة : " ما شاء الله، لقد كان رائعا " !.

- 33 -

سأروي هذه الحادثة التي جرت معي عام 1990؛ عندما زرت الجزائر الزّيارة الأولى، و استقرّ بنا المقام في مدينة الجسور المعلّقة " قسنطينة "؛ كانت قديما تسمّى " سيرتا "، أنزلونا في فندق " بانوراميك "، و كان يغصّ بالضّيوف أمثالنا الذين وفدوا إلى مؤتمر فنيّ إسلاميّ تحت عنوان " ملتقى الفنّ الإسلاميّ 1 "، و لا أريد أن أذكر الشخصيّات التي حضرته؛ و لا المواضيع التي طُرِحت فيه، فليس هذا قصدي من هذه المقالة، إنّما قصدي شيء آخر.

و جاء الشّباب الجزائريّ النّشيط جدّا لمقابلة هذه الشخصيّات من علماء شريعة، و ممثّلين، و شعراء، و أدباء، منشدين و خطّاطين، و مهندسين ... إلخ، و ما تكاد غرفة من غرف هؤلاء تفرغ من ضيوف، حتى تمتلئ فوراً بضيوف آخرين و لساعات متواصلة على مدى أيّام.

هذا يلتقط الصّور، و هذا يسجّل الحوار على مسجّل صغير - إذ لم تكن هذه الأجهزة الذكيّة قد وُجدت بعد - ، آخر معه دفتر يكتب ما تقول، أو يطلب منك أن توقع عليه، و آخر معه ورقة سجّل فيها مجموعة أسئلة يطرحها عليك و ينتظر إجابتك.

هذه الظاهرة في الحقيقة لم أرها بهذا الشّكل إلاّ في الجزائر، و هذا شيء طيّب أغبطهم عليه.

المهمّ؛ إنّ عدداً من الأشخاص استأذنوا في الدّخول عندي فرحّبت بهم، و بدأت الأسئلة الفنيّة عن كلّ ما يتعلّق بالإنشاد، الجزائريّون خصوصا؛ و دول شمال إفريقيا عموماً يعشقون الفنون الغنائيّة بفرعيها الدّينيّة و الدّنيويّة، كنت أجيب بما أعرف؛ و هم و أنا مستمتعون بذلك، و بينما أنا أردّ على جواب السّائل و إذا بأحدهم يقول لي : " هذا الجواب الذي أجبت به خطأ ".

نظرت إليه لأتأكّد هل هو مازح أم جادّ ؟، فرأيت معالمه تقول أنه جادّ في تخطيئي - طبعاً كلّ إنسان يغلط و يخطئ - لكنّني في إجابتي تلك لم أكن مخطئا.

و نظر أصحابه إليّ و إليه و أصبح الموقف محرجاً لكلينا، فإن سكت فقد اعترفت بغلطة لم أقع فيها، و إن أقمت عليه الحجّة فسيخجل أمام أصحابه، قلت له : " أنت الآن جعلت أصحابك في حيرة من أمرهم؛ و لا يعلمون مع من يكون الحقّ؛ أ ليس كذلك ؟، فأيّد الكلّ أنّهم أصبحوا في حيرة لا يعرفون من معه الحقّ.

ثم قلت له : " الآن سأدافع عن موقفي ليظهر الحقّ، يا أخي؛ هل درست علم الموسيقى ؟، فإذا كنت درسته فإنّي سأسألك منه، و إذا لم تكن درسته فإنه لا ينبغي لك أن تخطّئني.

قال : " درسته "؛ قلت : " جميل؛ و خذ السّؤال 1 ".

و أذكر أني سألته عن أبعاد السلّم الموسيقيّ و درجات استقرار كلّ مقام، و قلت له كذلك أني لن أصعّب عليك الأسئلة بل سأسألك من الأمور البديهيّة في هذا الفنّ، و قلت لأصحابه : " كونوا أنتم شهوداً علينا ".

و لمّا عجز قلت : " إليك جوابه ".

ثمّ السّؤال 2، فعجز عن الإجابة و بدأ وجهه يحمرّ - و هذا ذنبه - ، قلت : " إليك جوابه "، ثم السّؤال 3، فعجز كذلك عن الجواب و كأنّ لسان حاله يقول : " يكفي ".

ثمّ قال : " لقد مرّت عليّ مدّة لم أراجع معلوماتي ".

ثمّ تبيّن لأصحابه حقيقة الأمر الذي كان لا بدّ من توضيحه و هو الذي ألجأني مضطرّا لا مختارا.

ثمّ قلت : " خذ هذه النّصيحة، إذا لم تكن متيقّنا تماماً من معلومتك؛ فلا تخطّئ الآخرين حتى لا تقع في مثل هذا الإحراج ".

و نستغفر الله على كلّ حال.

- 34 -

كيف يكون تقييم المنشدين ؟.

هذا عنوان مهمّ جدّا، و ما أظنّ أنّه طُرح من قبل، و لا بدّ لي من ضرب المثال حتى تتوضّح الفكرة التي أقصدها.

في نهاية كلّ عام دراسيّ، نرى كثيراً قد نجحوا إلى صفوف أعلى، و منهم من تخرّج نهائيّاً و صار بإمكانه أن يستلم مناصب مهمّة، أو أن يدرّس غيره بعد أن كان الغير يدرّسه.

لكن يا ترى هل كلّ الذين نجحوا هم بمستوى واحد من العلم و من الفهم و من التّحصيل العلميّ ؟.

كلاّ أبدا؛ ليسوا على مستوى واحد إطلاقا؛ و لو أتينا بجميع منشدي العالم، و جمعناهم في صعيد واحد؛ و قلنا للنّاس : " من هؤلاء ؟ "؛ لقالوا : " هؤلاء منشدون "، أو ربما قالوا : " هؤلاء فنّانون إسلاميّون - إذا كان البعض لا يحب كلمة منشد - "، لكن السّؤال الآن؛ هل هؤلاء كلّهم على مستوى واحد من جمال الصّوت، و كثرة الحفظ، و جودة الأداء، و العلم بقواعد هذا الفنّ ؟، قطعا لا.

إذن؛ كيف نقيّم مثل هؤلاء، و نعطي لكلّ ذي حقّ حقّه ؟؟؟.

إنّ عامّة النّاس لا يعنيهم مثل هذا الأمر، بل يعنيهم أن يستمعوا لهذا و لهذا، دون أن يعرف أكثرهم ماذا يساوي هذا، و ماذا يساوي ذاك في ميزان الفنّ ؟؛ نحن لا نتكلّم عن الأفضليّة عند الله، فلربما كان أقلّهم صوتاً و علماً و شهرة هو أفضلهم عنده.

هناك كثير من هؤلاء المنشدين قد أنفق جزءاً كبيراً من عمره يتعلّم و يحفظ فيمارس، و ربما يلحّن أو ينظم، و لم يؤت حظّاً من الإنتشار و الشّهرة، التي نالها غيره بجهد يسير جدّا مقارنة مع جهد الأوّل.

لا أتكلّم هنا عن نفسي مطلقا، لأنّني معروف و الحمد لله، و لكن يؤلمني أن أرى أناساً في الظلّ، ربما تشرّفت أن أكون تلميذاً لهم، و كثير من النّاس لا يأبهون بهم.

كذلك، هناك منشدون أوتوا مواهب كثيرة غير موهبة الصّوت، فلا بدّ لي و لأمثالي من الباحثين من أن نشير إلى جوانب التميّز عند هؤلاء، لنلفت أنظار النّاس إلى مواهبهم المتعدّدة التي قد يغفل الناس عنها ظانّين أنّ المنشد صوت جميل و كفى.

مقاربة آيديولوجيّة : مسألة تعدّد المواهب مسألة هامّة جدّا في الفكر الإنشاديّ الحديث حيث يُنظر إليها وفق مصطلح " الدّور "؛ فإذا كان داخل الفرقة الإنشاديّة كان في إطار الفاعلين الإنشاديّين؛ و هم 5؛ و إذا كان خارجها كان في إطار مصطلح " تعبيد الطريق ".

- 35 -

أتكلّم هنا عن أمور فنيّة، و بطريقة موضوعيّة، بغضّ النّظر عن كوني منشدا، و ذلك ليستفيد جيل الشّباب ممّن سبقوهم في هذا المجال؛ ليعرفوا كيف يطوّروا الجوانب الفنيّة عندهم إن أرادوا ذلك، لأنّ هذا الفنّ بحر عجاج متلاطم الأمواج، و كلّ فنّان أخذ منه على قدر همّته.

و عندما نريد التّقييم نبدأ أوّلا بالصّوت الذي هو بالنّسبة للمنشد مركز الإهتمام، و تبقى باقي الأمور مكمّلات.

كلّ منشد له بصمة صوت خاصّة به، ينفرد بها دون الآخرين؛ و هذا من آيات الله و قدرته و إبداعه في خلقه، و لو فتّشنا في الوجود عن شيئين خلقهما الله متطابقين تمام التّطابق لما وجدنا.

و للصّوت مواصفات كثيرة ذكرها القدماء في كتبهم، يضيق المجال عن ذكرها :

1 - مساحة الصّوت : و هي شيء ضروريّ للمنشد و هامّ؛ مثلا؛ عندما تنشد الفرقة موشّحاً فيه درجات منخفضة أي أصوات ربما لا تتجاوز صوت " صول "؛ تجد بعض العناصر من الفرقة تسكت عند تلك الدّرجات، أو ربما اشتغلت في الجواب، و ربما تنشد الفرقة لحنا فيه جوابات حادّة، تجد بعض الأصوات الغليظة تسكت عند تلك الجوابات، أو ربما اشتغلت في القرار؛ و في هذه الحالة يحصل التّكامل في الفِرقة.

هناك أصوات تؤدّي ذلك اللّحن في أخفض درجة، و في أعلى درجة بكلّ راحة و سهولة، و هذا هو الصّوت الكامل من حيث المساحة، و ليس بالضّرورة أن يكون جميلاً أو بديعا، و ربما يكون كذلك.

2 - جمال الصّوت : قال تعالى : " يزيد في الخلق ما يشاء "، قال " عبد الله بن عبّاس " رضي الله عنهما : " هو الصّوت الحسن ".

و الصّوت الجميل يظهر و يبدو من الوهلة الأولى حين يبدأ المنشد بالعمل، فممّا ينبغي توفّره في الصّوت الصّفاء؛ ثمّ

النّقاء، و القوّة، و الشّجو، فيُقال : " صوت شجيّ "، ثمّ اللّيونة و المرونة، و إذا توفّرت فيه " العُرب " يكون أحسن و أجمل، على أن تُستعمل في محلاّتها و أماكنها دون إفراط.

كانت المطربة " أمّ كلثوم " في بداياتها تفرط في استعمال " العُرب "، فلمّا كبرت و نضجت فنيّا صارت تستعملها في أماكنها الضّروريّة فقط؛ كذلك " محمّد عبد الوهّاب " عنده عُرب في صوته يوظّفها في خدمة المعنى و التّعبير و لا يجعلها هدفاً و غاية في حدّ ذاتها.

مقاربة آيديولوجيّة : نقول؛ الموضوعيّة هي أنّ الصّوت سليم و صحيح أي اهتزازات صحيحة و سليمة للأحبال الصّوتيّة؛ أمّا حُكمنا عليه بالجمال فهو شيء ذاتي متغيّر حسب الأذواق.

- 36 -

ذكرنا أهمّ صفة فنيّة في المنشد؛ و هي " الصّوت ".

لكن في الحقيقة هناك صفة أهمّ من الصّوت، هل أنت متواضع ؟، هل أنت صاحب خلق ؟.

للصّوت مواصفات كثيرة : جماله، صفاؤه، قوّته، إتساع مساحته، مرونته، نداوته، سلامته من العيوب، ... إلخ.

هناك ما يسمّى " الصّوت اللّقميّ "، و كأنّ صاحبه في فمه لقمة فلا تكاد تفهم ما يقول، و هناك صوت يخرج معظمه من الأنف، و هناك صوت يكون بالغ الحدّة، أو بالغ الغلظة، أو يكون أجشّا خشنا، أو يكون مبحوحاً دائما، غير الصّوت الذي فيه بحّة عارضة تجمّله كلّما مرّت، و هناك عيوب أخرى كثيرة لا تعدّ في الأصوات، و من كان في صوته مثل هذه العيوب؛ و له باعٌ في الفنّ؛ فالأفضل له في هذه الحالة أن يعلّم المقامات مثلا، أو يلحّن، أو يقوم بتدريب الفِرق أو المنشدين، و تحفيظهم الألحان، أي يكون قد وضع نفسه في المكان الصّحيح.

هناك كثير من الملحّنين الكبار لم تكن أصواتهم جميلة و مستوفية الشّروط المطلوبة، لكنّهم لم يطرحوا أنفسهم كمطربين أو كمنشدين، بل كملحّنين و كمعلّمين، و نجحوا في ذلك كثيراً جدّا، مثل " عمر البطش " في مدينة " حلب "، و أخي الأستاذ الشّيخ " مسعود خياطة " حفظه الله الذي علّم كثيراً من المنشدين الموشّحات و المدائح مع ضروبها، ثمّ أصول إدارة حلقات الأذكار، إذن هو عرف أين يضع نفسه و كيف يفيد النّاس.

الوشّاح و الفنّان و الخليفة الأبرز من خلفاء " عمر البطش "، المرحوم " عبد القادر حجّار "، لمّا أصيب صوته بمرض اعتزل الحفلات العامّة؛ و لجأ إلى تعليم الموشّحات، و جعل من بيته مدرسة لطلاّب هذا الفنّ، و علّم مئات الشّباب.

مرّة؛ قالوا لأحد الفلاسفة أنّ تلميذك فلان أقوى منك في فنّ الخطابة؛ فكيف ذلك ؟.

فقال لهم : " أنا كالمشحذ أي المسنّ الذي يشحذ و لا يقطع ".

و هناك الفنّان و الملحّن الكبير " بكري الكرديّ " الذي غنّى على المسرح مع الموسيقى سنوات عديدة، فلمّا أحسّ بعدم تذوّق النّاس لفنّه؛ إنسحب من السّاحة العامّة إلى السّاحة الخاصّة الأكثر تذوّقا.

و كان من بعض تلامذته الكثر : " صباح فخري " و " محمّد خيري " و " عبد الوهّاب الصّباغ " الذي علّمني، ... إلخ.

و هناك أيضا في مصر الموسيقار " زكريّا أحمد " الذي ملأ الدّنيا بروائع الألحان؛ لم يكن صوته ذلك الصّوت الذي يُحسب مع الأصوات الرّائعة؛ لكنّه أبدع في التّلحين جدّا، و غنّت " أمّ كلثوم " من ألحانه أكثر من 90 لحنا؛ كلّها ألحان رائعة، و لم يطرح نفسه مطربا، فرحم الله عبداً عرف حدّه فوقف عنده.

بالنّسبة لنا نحن المنشدين بصورة خاصّة نحبّ سماع الفنّانين الكبار و لو لم يكونوا من أصحاب الأصوات البديعة، لأنّنا نعجب لقوّة أدائهم و للمهارة في الغناء بغضّ النظر عن الصّوت، فهم يملكون النضج الفنيّ، و حسن التّعبير، كالمرحوم " بكري الكردي "، و " الحجّار "، و " عبد الرّحمن المدلّل "؛ الذي كان ملحّنا؛ و لم يكن ذا صوت بديع، و نطرب للفنّان " زكريّا أحمد " لنفس الأسباب، كذلك " مسعود خياطة "، لأنّ لنا مقاييسنا التي تختلف عن مقاييس عامّة الناس.

مقاربة آيديولوجيّة : قسّم الفكر الإنشاديّ الحديث مسألة الأدوار الفنيّة إلى 5 أقسام؛ كل واحد يقوم على اختصاصه ليحدث التّكامل المطلوب؛ فالإشراف على الفِرقة ميدان وحده دون التنشيد و دون ضبط الإيقاع و دون تعهّد الرّؤية و دون مسؤوليّة الصّوت، و كلّ دور فنيّ له متطلّباته و مستوجباته الذي لا يُشترط توفرها في دور فنيّ آخر.

- 37 -

أظنّ أنّ عامّة النّاس لا يستطيعون تقييم المنشدين بالمعنى الدّقيق للكلمة، بل يقدر على هذا أهل الإختصاص، لأنّهم يملكون أدوات التّقييم، تماماً لو عرضنا قصيدتين من الشّعر على عامّة الناس، و طلبنا منهم أن يقيّموهما، أي إظهار المحاسن و المساوئ؛ لما استطاعوا ذلك.

قد يقول قائل ما : " أنا أحبّ سماع فلان من المنشدين، و ما أدري هل هناك من هو أفضل منه أم لا ؟ "، نقول له : " أنت حرّ في حبّك لذلك المنشد، و هي مسألة أذواق؛ و نحن لا نناقش في الأذواق، و لا نريد كذلك أن نحوّل حبّك من سماعه إلى سماع غيره ".

إنّ لنا ميزاننا الخاصّ في تقييم المنشدين، و هذا ما يسمّى علم " النّقد الفنّيّ "، و هو علم يعطي المنشد ما له و ما عليه، بعيداً عن العواطف و الإعتبارات الأخرى؛ و اعلموا إخوتي أنّ كلّ ميزة فنيّة يملكها المنشد ضمن فنّ الإنشاد؛ هي نقطة تسجّل لصالحه، فعندما يتقن كذا و يتقن كذا؛ فهذه كلّها إيجابيّات تُحسب له.

هناك مثلا من ينشد باللّغة العربيّة و باللّغة الإنجليزيّة، و هناك من ينشد بالعربيّة و بالإسبانيّة و بالفرنسيّة، لا يعني أنّ هؤلاء المنشدين في قمّة هرم التّرتيب، فلو سألنا عن كمّيّة الرّصيد من تراث الموشحات و القصائد و المقامات أو الموازين الموسيقيّة و العلم بدرجات السّلّم لاختلف الحال.

أريد بهذه الأمثلة أن أعرّف القارئ كيف نقيّم المنشد التقييم الدّقيق الذي لا نظلمه فيه، و لا نعطيه أكثر من حقه، إنّ التقييم في هذه الأيام - للأسف - أصبح بحسب الشّهرة و الإنتشار عن طريق الفضائيّات و الفيديو كليب ... إلخ، و ليس بسبب ما يتقن هذا المنشد من أبجديّات الفنّ، فترى المديح يُكال له و الثّناء و الإطراء، و لو سألته مثلاً عن وزن من الموازين الموسيقيّة، أو عن مقام من المقامات، أو عن شيء آخر فتراه لا يستطيع الإجابة.

أستطيع القول أنّ عصرنا هذا لم يعد يُعنى بدقائق الفنّ الحقيقيّ الذي كان يتميّز به من سبقونا رحمهم الله؛ فمنهم

من كان يحفظ 1000 موشّح أو يزيد، و ربما حفظ 100 مقام، و ربما حفظ 40 أو 50 ضرباً من الضروب، و ربما حفظ مئات القصائد و المواويل، و بعد كل هذا ربما اعتبر نفسه مقصّرا بالنّسبة لمن سبقوه قبل قرن أو قرنين.

إنّنا نعيش عصر الفنّ الإستهلاكيّ على مستوى الإنشاد و الغناء إلاّ في حالات استثنائيّة نادرة لا تشكّل تيّاراً أو ظاهرة، و كما قالوا " إنّ وردة واحدة لا تصنع ربيعا "، و مع هذا التردّي الفنيّ الذي نعيشه؛ لا يزال هناك منشدون لا يزالون يحملون اللّواء؛ قابضون على الجمر، يرفضون الإسفاف، و لكن من يعرفهم ؟، و أين هم ؟، و مثل هؤلاء لو قدّموا تلك الجواهر الفنيّة أمام جمهور في حفل عرس مثلا؛ لكانوا مدعاة لتثاؤب هذا الجمهور و تململه، الذي يقول لهم : " لا نريد أن ننام، نريد أن نرقص فهيّا ... حرّكونا ".

مثل هذا جرى معي عندما أنشدت في أحد المساجد لحناً دسما؛ فرأيت الملل في أعين الناس، فتحوّلت إلى اللّون الخفيف؛ فسرّوا و تنشّطوا؛ هذا هو حال الفنّ الدّينيّ و الدّنيويّ في هذه الأيّام، و أصبحت الألحان الخالدة كالآثار معروضة في المتحف، يتفرّج عليها النّاس و لا يستعملونها، لقد كانت لأناس مضى زمانهم.

مقاربة آيديولوجيّة : مسألة النّقد الإنشاديّ مسألة شائكة و معقّدة، كونها ترتبط بالحالة النفسيّة للأفراد من جهة فهل كلّ الناس يتقبّل النّقد ؟، ثمّ إنّ النّقد يقوم على أسس و قواعد و شروط يجب توفرها في النّاقد.

لمزيد من المعلومات حول ميدان النّقد يُرجى الاطلاع على كتاب " المنظار في النّقد الإنشاديّ " نسخة خاصّة لجهاز أنسام الصّباح للتربية الفنيّة إصدار جانفي 2011.

- 38 -

الغاية أن يعرف المنشد المبتدئ ما يجب عليه تعلّمه من أمور فنيّة، حتى يكون منشداً متكاملاً أو أقرب إلى الكمال.

إذا أردنا أن نحكم على منشد؛ نحكم عليه من خلال معطيات فنيّة متوفّرة لدينا، بحيث لا نبخسه حقه، و لا نضعه فوق مستواه بكثير، كما نسمع من بعض الجهلة بهذا الفنّ عندما يُسألون عن منشد أو قارئ مثلا؛ فيجيبون إجابة العالم المتمكّن، و هم لا يعلمون شيئاً من أمور الفنّ، إنّما هي العاطفة أو التعصّب لا أقل و لا أكثر.

قلنا إنّ الصّفة الأهمّ في المنشد هي جمال الصّوت و قوّته و اتّساع مساحته، و قد سمعنا منشدين لا يصلحون للأداء الفرديّ، و مع ذلك؛ يخوضون هذا الخضمّ الذي ليسوا أهلاً له، و لو أنّهم بقوا في الأداء الجماعيّ لكان خيراً لهم، فرحم الله عبداً عرف حدّه فوقف عنده.

بعد الصّوت يأتي موضوع النّطق الصّحيح، و هذا لا يتحقّق بشكل جيّد إلاّ بمعرفة أحكام التّجويد؛ ثم يأتي موضوع حفظ الألحان؛ من موشّحات تراثيّة، و ابتهالات و مدائح، و أناشيد المناسبات الدّينيّة، كأناشيد المولد النبويّ و الهجرة؛ الإسراء و المعراج، الحجّ و العمرة؛ أناشيد رمضان؛ ليلة القدر و العيدين.

و ينبغي أن يحفظ المنشد كذلك الأناشيد التي تُعنى بالجانب الإجتماعيّ، كأناشيد الأعراس و الختان و الشفاء، ثمّ أناشيد المآتم و الموت و التّعازي ... إلخ؛ ثمّ معرفته بالمقامات الأساسيّة و الفرعيّة التي تصل إلى 100 مقام، و إتقانه للموازين الموسيقيّة التي تبلغ العشرات، و معرفته بدرجات السلّم الموسيقيّ، بحيث يستطيع أن ينوّع في المقامات فالدّرجات، ثمّ يعود من حيث بدأ دون أن يضيّع الدّرجة التي بدأ منها.

كلّ هذه الأمور الفنيّة تجعل من المنشد فنّاناً متمكّناً بكلّ معنى الكلمة، شخص مثل هذا؛ أنفق سنين قيّمة من عمره و هو يتعلّم و يجدّ و يمارس لا يمكننا بحال من الأحوال أن نقارنه بمن لا تتوفّر فيه هذه الفنيّات التي ذكرنا.

هناك أشياء يمكن إضافتها إلى ما ذكرنا مثل كونه مجوّدا للقرآن الكريم، أو كونه ملحّنا، أو كونه كاتبا لكلمات الأناشيد بالعاميّة أو بالفصحى، هذه كلّها نقاط هامّة تصبّ في رصيد المنشد عند تقييمه، لأنّ الصّوت وحده مهما كان جميلاً لا يصنع منشداً كاملا.

مقاربة آيديولوجيّة : و قبل كلّ ذلك يجب أن يكون مطلعاً على مفهوم الإنشاد و أسسه و الفكر الفلسفي القاعديّ و العقيدة الإنشاديّة و المدارس التاريخيّة و الحركات العالمية ... إلخ.

- 39 -

لمّا كنت منشداً في " حلب " أيّام الشّباب؛ لم أكن أعاني و باقي المنشدين من ذوق الجمهور مطلقا، فقد كنّا نعرف ما يحبّه فنقدّمه له، كنّا ننشد في الأعراس أوّلا الموشّحات الغزليّة و اللّيالي ثمّ قصائد الحبّ العذريّ، و كذلك القدود الدّينيّة المقلوبة عن أغانٍ شعبيّة غزليّة، و ننشد في منتصف الحفل و آخره الأناشيد الدّينيّة، و لم تكن وقتها أناشيد خاصّة بالأعراس، كما هو الحال الآن إذ أنجزت عشرات الأناشيد الجماعيّة و القصائد الفرديّة التي تغطّي المناسبة بصفة كاملة سادّة تلك الثغرة.

كان الجمهور ذوّاقا لما نقول، و متفاعلاً مع ما يسمع، لم نكن نجد صعوبة في تقديم ما عندنا البتّة.

أمّا الآن؛ بعد مرور نصف قرن، تغيّر النّاس و تغيّرت الأحوال و الثقافات و الأذواق و الألوان الغنائيّة و الإنشاديّة، مع كثرة الفضائيّات و انتشار " الفيديو كليب "، و اعتماد كثير من المنشدين على تقنيّة " البلاي باك " " **Playback** "، خاصّة في المهرجانات الدّوليّة ذات الجماهير التي تعدّ بالآلاف؛ ممّا اضطرّ أكثر المنشدين إلى أن يسجّلوا أناشيدهم مسبقاً في استوديوهات متخصّصة، موزّعة توزيعاً جيّداً و مصحوبة بالكورال، و أحيانا كثيرة بالموسيقى، و أحيانا تكون بتقنيّة تسمّى " الماينس ون " " **Minus One** "؛ أي يُترك مكان المنشد الفرديّ فارغاً ليقوم المنشد الرّئيس بوضع صوته في هذا الفراغ.

في بعض الأحيان يكون " البلاي باك " كاملاً بالكورال و الصّولو، و يكتفي المنشد بالإمساك بالميكروفون مع الأداء مع صوته المسجّل أصلا؛ و حتّى لو أراد تحريك شفاهه فقط فلا مشكلة، و لو أراد السّكوت فلا مشكلة، و حتى لو كان لا يحفظ الكلمات فلا مشكلة؛ المهمّ أنّ شخصه موجود في الحفل، و أنّ الجمهور استمتع بوجوده و سعد بتواجده معه.

هذا هو حال أغلب المهرجانات في هذه الأيّام؛ الواقع الذي نعيشه ربما فرض مثل هذه الأمور، و كما قيل؛ ليس في الإمكان أحسن ممّا كان؛ فالجهة المنظّمة لتلك الإحتفالات الكبيرة قد يُثقل كاهلها مصاريف فِرقة مكوّنة من 12

منشداً يأتون بالطائرة؛ و ينزلون في الفنادق؛ و يأكلون في المطاعم؛ و تؤمّن لهم المواصلات الدّاخليّة؛ ثمّ يتقاضون أجورهم عن الحفل، كلّ ذلك على حساب الجهة المنظمة التي قد لا تتحمّل إمكانيّاتها الماديّة، لذلك يدعون منشداً واحداً يحمل في حقيبته " الفلاش ميموري "؛ هذه الذاكرة الخفيفة المتنقّلة؛ فيها الأناشيد و الكورال؛ و التّوزيع و الصّولو و كلّ شيء؛ ثمّ يدفعون في نهاية المهرجان أجرة منشد واحد، و يتحقّق المقصود و ينجح الحفل.

أ ليس هذا هو المطلوب، و يكون أريح و أوفر على الجيوب ؟.

هذا هو الواقع الذي فرضه التّطوّر التّكنولوجيّ و توفّر الأسباب التّقنيّة.

_ 40 _

كان المنشد قديما - قبل انتشار الفضائيّات - غالباً ما ينشد في بيئته، و هو بالتّالي منسجمٌ معها؛ و بيئته منسجمة معه؛ و كان التركيز في تلك الفترة على لون الإبتهالات الرّبانيّة، و المدائح النبويّة، و ربما الرّقائق الصّوفيّة " الرّوحانيّات ".

كان الكلّ يتقبّل هذا النّوع من الإنشاد، إذ هو السّائد و الموجود؛ لكن بعد نكسة 1967 و بدء ظهور الأناشيد الدّعويّة و الجهاديّة، من مدينة " حلب " و مدينة " دمشق " تحديدا، و تجاوب النّاس معها تجاوباً كبيرا؛ ثم ظهور أناشيد جهاديّة كذلك من " فلسطين " و " الأردن " بعد الإنتفاضة ضدّ العدوّ الصّهيونيّ؛ و مع ظهور أناشيد دعويّة من مناطق " الجزائر " و " السّعوديّة " و " الكويت " و " الإمارات " و " اليمن " و" البحرين " و غيرها؛ أصبح بعد ذلك الإنشاد الدّعويّ الحماسيّ هو اللّون السّائد؛ و انحسر الإنشاد الكلاسيكيّ التّقليديّ نوعاً ما ليفسح المجال للوافد الجديد الذي كان يلبّي طموحات النّاس، بسبب الهزائم العسكريّة و النّفسيّة أمام أعداء الأمّة.

لقد وجد النّاس متنفّساً لهم في الأناشيد الدّعويّة و الحماسيّة، التي كانت تبشّر بالنّصر، و تشحذ الهمم، معيدة الأمل المفقود، حتى أنّنا في " الأردن " لمّا كنا نحيي حفل عرس؛ كان الحضور يطلبون منّا أن نكثر من أناشيد الإنتفاضة و من الأناشيد الحماسيّة التي تحثّ على مقاومة الإحتلال الصّهيونيّ، و تحرير " فلسطين " من ربقته.

بعد اشتهار المنشدين أصحاب الأناشيد الدّعويّة لانتشار أناشيدهم عن طريق أشرطة الكاسيت؛ ثم عن طريق الفضائيّات و " الفيديو كليب "؛ صاروا يُدعون إلى عدد من الدّول العربيّة، ثم بعد ذلك إلى الدّول الأجنبيّة، لينشدوا للجاليات العربيّة التي تعيش هناك، و أذكر أني دُعيت لأنشد عن الإنتفاضة في " الإمارات " عام 1988، ثم دُعيت للجزائر عام 1990، و أنشدت في حينها أناشيد عن " الجزائر " و " فلسطين "، و مع مرور الوقت؛ صار يُدعى منشدون كثر إلى شتّى البلاد العربيّة و الأجنبيّة و اتّسع المجال كثيرا، و تنوّعت الألوان الإنشاديّة أكثر، و تعدّدت مضامينها الفكريّة.

- 41 -

ألتقي بكثير من المتتبّعين للإنشاد؛ و خاصّة كبار السّنّ؛ فأجدهم يبدون امتعاضهم و انزعاجهم من انحدار المستوى انحداراً شديدا، و يترحّمون على تلك الأيّام الخوالي حيث كان هذا الفنّ يفعل فيهم فعل السّحر، سواء على مستوى الصّوت؛ أو على مستوى اللّحن؛ أو على مستوى الكلمة، و لا يقتصر هذا على الإنشاد الدّينيّ فحسب؛ بل على الغناء الدّنيويّ كذلك.

ما الذي حدث ؟.

هل تغيّر كلّ شيء ؟، نعم و للأسف.

ماذا يمكن أن نقول ؟، هل هي سنّة الحياة ؟، أو هل هي دورة الحياة ؟.

لا شيء يبقى على حاله، و دوام الحال من المحال؛ فهل الآية الكريمة تشير إلى هذا المعنى يا ترى ؟، " و تلك الأيّام نداولها بين الناس ".

لو نظرنا في حركة التّاريخ من أوّله إلى هذه اللّحظة لرأينا أنّ التّغيير و التّبديل حاصل و مستمرّ، و لا يستطيع أحد إيقافه مهما بذل من قوّة أو جهد؛ طبعاً فإنّ لكلّ شيء أسبابه دون شك، فما هي أسباب انحدار فنّ الإنشاد ؟.

إنحدار مستوى الغناء الدّنيويّ، و قد يبدو هذا القول غريبا، لكنّه ليس بغريب، لأنّه لمّا كان الغناء يعيش فترته الذهبيّة طيلة 75 سنة الماضية من القرن 20؛ كان الإنشاد الدّينيّ يعيش فترته الذهبيّة كذلك، و كان جمهور المستمعين للطّرفين؛ الغناء و الإنشاد؛ يعيش فترته الذّهبيّة أيضا.

أ لم يكن جمهور المطربة " أمّ كلثوم " على سبيل المثال ينتظر حفلها الشهريّ كلّ خميس من أوّل كلّ شهر ؟، و يدفع ثمن التّذكرة الباهظة ليحضر ؟، و يجلس السّاعات الطّوال و هو يستمع إليها حتى ساعة متأخّرة من اللّيل ؟، و كلّما

أعجبته جملة لحنيّة صفّق لها و صاح ؟، و كلّما أعجبه مقطع من الأغنية طلب الإعادة؛ لمرّات و مرّات.

في مقابل هذا؛ كلّما قرأ الشّيخ " محمّد رفعت " القرآن في مسجد ما؛ أو " مصطفى إسماعيل " أو " المنشاوي "؛ أو الشيخ " عبد الباسط "، أو أنشد الشّيخ " علي محمود " أو تلميذه من بعده " طه الفشنيّ " أو " سيّد نقشبندي "؛ أ لم تكن المساجد و السّاحات تمتلئ ؟؛ و تُغلق بعض الطّرق لكثرة النّاس الذين جاؤوا للإستماع ؟!.

لقد كانت كلّ الأسباب مهيّأة و ممهّدة لتلك المواهب أن تبرز و تظهر، فكتّاب الكلمة موجودون، و الملحّنون على أعلى مستوى، و الأصوات رائعة، و وسائل الإعلام مشرعة الأبواب لتغطية تلك الأنشطة الفنيّة كلّها حسب المتوفّر آنذاك، أمّا الأجور فمجزية وفق ذلك الزّمن، حتّى إنّ الشّخص إذا تقدّم للغناء و لم يكن في المستوى المطلوب؛ ربما ضُرب بالبيض الفاسد أو بالطّماطم.

- 42 -

إنّ من أسباب تدنّي مستوى الإنشاد الدّينيّ هو تدنّي مستوى الغناء الدّنيويّ، لأنّ هناك علاقة قويّة بين الإثنين، فما يؤثر على هذا يؤثر على ذاك.

كان جمهور تلك الأيّام ذوّاقا جدّا للإنشاد و لباقي الفنون الغنائيّة الأخرى، كنّا نحسب له ألف حساب عندما ننشد أمامه؛ معظمه يعرف المقامات و الأوزان الموسيقيّة، و يعرف أسماء الشعراء الذين كنّا ننشد لهم، و يعرف درجات السلّم الموسيقيّ، لدرجة أنّ أحد السّميعة كان يستمع لمنشد عريق؛ و قد ابتدأ ذلك المنشد من مقام معيّن منتقّلا لغيره ثمّ غيره ثمّ عاد إلى نفس المقام، و لكن على درجة أخرى، فقال له ذلك السّمّيع : " لقد أضعت الطّبقة يا فلان، فلم يرد عليه المنشد خجلا لأنّه بالفعل قد أضاع الطّبقة ".

و قصّة الموسيقار " محمّد عبد الوهاب " معروفة عندما زار " حلب " في الثّلث 1 من القرن 20، و لمّا دخل المقهى الذي سيغنّي فيه؛ وجد عدداً قليلا فقط من النّاس جاؤوا لسماعه، فسأل صاحب المقهى عن السّبب؛ فقال له : " هؤلاء شيوخ " السّماع " جاؤوا من مختلف الأحياء ليسمعوك، فإذا أعجبتهم؛ أخبروا النّاس أنّك تستحقّ أن تُسمع، فيحضرون الحفل و هم مطمئنّون ".

فعلا، في اليوم التّالي جاءت أعداد كبيرة للإستماع إليه؛ كان القدماء ينظرون للغناء و الإنشاد على أنّه غذاء للرّوح، و شيء أساسيّ في حياتهم لا غنى لهم عنه، و أنّه من الضّروريّات و ليس من الكماليّات.

أمّا الغناء و الإنشاد هذه الأيّام؛ فلم يعد يُنظر إليه كغذاء للرّوح، إنّما مناسبة للرّقص و للتّمايل و لهزّ الخصور، حتى في الأوساط الدّينيّة، و يجب عندهم أن يكون الإنشاد على إيقاعات راقصة و صاخبة، حتى يرقص عليها الجمهور، فإذا لم تلبّي طلبه؛ فأنت منشد فاشل، و لا تستحق أن يُستمع إليك !.

مرّ هذا معنا في مسيرتنا الفنيّة و لا يزال يمرّ، و هو يسير من سيّء إلى أسوأ، و لم يعد ينفع كلّ العلم الذي تعلّمناه،

أو كلّ التّراث الذي حفظناه، و لا كلّ الكلام الطيّب الذي نظمناه أو انتقيناه، فإذا دُعيت كمستمع إلى عرس صديق أو ابن صديق؛ فإنّك تجد المنشد و معه فرقته " الكورال "، و معهم آلة " الأورغ "، و يبدأ الإنشاد لأنّ أهل الحفل متديّنون و في الحقيقة ليس إنشاداً و إنّما هو غناء، و يا ليته كان غناء حقيقيّا؛ لأنّك تسمع غناء مشوّها يرافقه الإيقاع الصّاخب، فتحاول أن تفهم ماذا يقول المغنّي فلا تستطيع و ليس المهمّ أن تفهم ما يقول، إنّما المهمّ أنّ الحضور من الشباب شرعوا بالرّقص و هزّ الخصور.

أ ليس هذا هو الفنّ ؟.

أ ليس هذا هو المطلوب ؟.

في مرّة حاولت أن أستمع لما يقول المطرب فالتقطت هذه العبارة : " صبّ الزّيت على الزّيت و امش بشوارع الكويت ".

يا له من شعر بليغ يحلّق بك في عالم من السّحر و الجمال !.

مقاربة آيديولوجيّة : الجمهور في تغيّر مستمرّ لا يتوقف، تؤثر عليه متغيّرات كثيرة مثل وسائل الإعلام و وسائل اللّهو و الترف ... إلخ؛ و جوهر التغيّر هو الأفكار التي يتبنّاها ليتحرّك عليها في الحياة؛ فعالم الأفكار يسبق عالم اللاّ أفكار.

- 43 -

ما زلت أتحدّث عن أسباب تدنّي مستوى الإنشاد؛ و هذا شيء ملاحظ عند أكثر النّاس الذوّاقين، الذين عاصروا هذا الفنّ قديما، و عاصروه الآن فوجدوا الفرق شاسعاً و البون واسعاً بين الحالتين.

حتى أنّ المستمع لبعض الأناشيد المعاصرة؛ لا يكاد يفرّق بينها و بين الأغاني الدّنيويّة؛ إلاّ إن مرّت في ثنايا الأنشودة بعض الكلمات التي توحي بأنّ المضمون دينيّ !.

يعود سبب ذلك إلى أنّ كثيراً من المنشدين المعاصرين قد تشبّعوا بأغاني المغنّين المعاصرين المشهورين؛ فحذوا حذوهم و نهجوا نهجهم في ألحانهم؛ و لم يعرفوا أنّ الألحان الدّينيّة لها جوّ خاصّ مختلف و متميّز عن أجواء الغناء الدّنيويّ؛ و ذلك لانعدام الثّقافة الفنّيّة عند أكثرهم.

على سبيل المثال؛ لو استمعت لأحدهم و هو يؤدّي ابتهالاً يناجي فيه الله؛ لأوحى لك ذلك اللّحن بأنه غزل بين شابّ و شابّة يعيشان في بلدان" أمريكا " و " أوروبّا " المتحرّرة و المتحلّلة، و على هذا فقس.

هناك ضياع لهويّة كثير من المنشدين الذين افتُتنوا بالتّغريب و الموضة و التّقليد الأعمى؛ و انسلخوا إلى درجة ما عن عاداتنا و تقاليدنا؛ و مبادئنا و قيمنا؛ و صاروا مقلّدين لما ذُكر سابقاً في كلّ شيء، و هناك أحاديث شريفة كثيرة تشير إلى ما أتكلّم عنه.

إنّ الملحّنين العمالقة المثقّفين و الذوّاقين؛ أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر " رياض السّنباطي "؛ حين قدّم للفنّانة " أمّ كلثوم " بعض القصائد الدّينيّة : " وُلد الهدى "، " سلوا قلبي "، " إلى عرفات الله "، " القلب يعشق كلّ جميل "، ستلحظ منذ بداية المقدّمة الموسيقيّة كيف يبدأ اللّحن برسم الأجواء الدّينيّة؛ و الإيحاءات الرّوحانيّة العلويّة؛ ممّا يجعلك تشاهد ذلك في مخيّلتك و وجدانك إلى أن ينتهي العمل.

من كان يظنّ أنّ التّلحين هو رصف جمل لحنيّة بعضها بجانب بعض و كيفما اتفق؛ فهو واهم و لا يفقه أيّ شيء عن التّلحين، بعض الملحّنين أنجز أغنية يودّع فيها حبيباً له بلحن مفرح راقص و كأنّه فرح بزوال كابوس عن صدره.

هذا من فساد ذوقه.

مقاربة آيديولوجيّة : أيّ فنّ غنائيّ تستمع إليه سيدخل إلى اللاّ وعي؛ و ستتحرّك به مستقبلاً في مواقف كثيرة قد تصدمك أحيانا.

- 44 -

أريد أن أسأل : هل هناك شيء في القرن 21 لم يتغيّر حتى يبقى الإنشاد وحده صامداً و راسخاً دون تغيير ؟!.

مستحيل هذا؛ فكلّ شيء تغيّر و تبدّل، و هذا من سنن الحياة و لا بدّ، و من أراد أن يوقف عجلة الحياة و قوانينها عن الدّوران فإنه يحاول المستحيل؛ و ينفخ في قربة مثقوبة.

لمّا بدأنا ننشد في السّتينيّات من القرن 20؛ ربما كنّا نُعتبر دخلاء على فنّ الإنشاد و متطفّلين عليه بالنّسبة لمنشدي العشرينيّات من نفس القرن، و ربما كذلك جيل العشرينيّات كان يُعتبرّ متطفّلاً على الإنشاد بالنسبة لجيل القرن 19؛ و هكذا دواليك حتّى أن الموسيقار المصريّ " محمّد عبد الوهّاب " لمّا بدأ مسيرته الفنيّة في الرّبع 1 من القرن 20؛ هاجمته كثير من الصّحف و شنّعت عليه؛ بل اتّهمته بتشويه الغناء العربيّ الأصيل و تحويله عن مساره.

خلاصة القول؛ لا يمكننا أن نبقي الإنشاد كما كان في القرن 19 و معظم القرن 20، لا يمكننا لأنّ الأمر خرج عن السّيطرة؛ و التيّار جارف؛ و تلوّثت آذان معظم النّاس؛ و مرضت أذواقهم السّمعيّة إلاّ من رحم ربّي، مع أنّني أودّ أن يبقى ذلك الإنشاد الرّاقي الذي يُطربك من الأعماق؛ و يشعرك بالنّشوة الرّوحيّة، و كأنّك تعيش في سماء الرّوح و ليس في كثافة المادّة.

و قد قالوا : " من ذاق عرف "؛ و من لم يذق كيف سيعرف ؟، حتى قال بعض الخلفاء العبّاسيين : " ما غنّاني إبراهيم الموصلي إلاّ ظننت أنّه زيد في ملكي ".

و قال " أحمد شوقي " يصف غناء " عبدو الحمولي " : " يخرج المالكين عن حشمة الملك و يُنسي الوقور ذكر وقاره ".

أي أنّ غنائه يُنسي الملوك هيبتهم و وقارهم لما يحرّك فيهم من أشجان.

كلّ هذا أصبح من رماد الذكريات؛ ألا ترى طوابير الشّباب تقف في مطاعم الوجبات الجاهزة السّريعة التي اعتادت

عليها و لم ترغب عنها بديلا ؟.

كلّ شيء أصبح على السّريع من الأمر و الجاهز و لم يعد هناك وقت للخرفان المحشيّة بالأرز و أطايب المكسّرات من الفستق الحلبيّ الأخضر و الصّنوبر؛ و بالسّمن الأصليّ من الضأن، فإذا أكل بعضهم من هذه الوجبات الدّسمة؛ فإنّه يمرض و ربما لا يعرف النّوم أو يذهب للطّبيب في حالة صعبة.

كانت الأغنية و الأنشودة قديماً تُسمع بالأذن فتتفاعل معها الأحاسيس؛ فأصبحت اليوم تُشاهد بالعين، يعني أنّها أصبحت استعراضاً و حركات يقوم بها المنشد على المسرح يرقص و يقفز و يروح و يجيء؛ و ربما قفز من خشبة المسرح إلى أرض القاعة متنقّلاً بين الحضور من الجمهور بدعوى التّطوير و الحداثة؛ و ربما كان سرواله ممزّقاً عند الرّكبتين لمسايرة الموضة؛ فهو لا يحبّ أن يُقال عنه رجعيّ و متخلّف.

شكراً لمن قرأ.

مقاربة آيديولوجيّة : من عادة النّاس ألاّ يقبلوا الجديد من الأفكار لأنّهم ألفوا الأفكار التي نشؤوا عليها فولّدوا منها عادات؛ و أصبح الجيل الواحد يتغيّر كلّ 10 سنوات بسبب تأثير وسائل الإعلام على أفكاره و عواطفه، و لقد ذكر الشيخ " الترمذيّ " ما عانته المدارس الإنشاديّة من عراقيل حين ظهرت كلّ واحدة، بسبب الأفكار التي كانت تُعتبر جديدة عمّا تعارف الجمهور عليه.

- 45 -

قال الشّاعر :

لا يعرف الشّوق إلاّ من يكابده و لا الصّبابة إلاّ من يعانيها

أردت من بيت الشعر هذا أن أجعل منه مدخلاً إلى موضوعنا الذي نتناوله الآن؛ تدنّي مستوى الإنشاد، و لأضرب عدداً من الأمثلة التي توضح الفكرة التي هي جدّ هامّة في بحثنا، ألا و هي " التذوّق ".

ذات مرّة كنت في " الكويت "، و زرت أحد معارض التّحف القديمة لأحد الأثرياء، و قد أقامه في فيلته بشكل دائم، و الدّخول إليه مجّانا، و كنت بصحبة أخوين خطّاطين، كنّا نمرّ على بعض لوحات الخطوط، أو بعض المصاحف المخطوطة، فكانا يبديان رأييهما حول الجماليّات في كتابة ذلك الحرف، أو تلك الكلمة باندهاش و انبهار تامّ، و هما في حالة من العشق و الطّرب لما يشاهدان، و أنا أحاول أن أعيش معهما تلك المتعة على مبدأ " فإن لم تبكوا فتباكوا ".

كان الفرق بيني و بينهما أنهما مارسا الخط و كابدا إتقان كتابة الحروف، و صارا يتذوّقان الإبداع و الجماليّات بينما أنا لم أعش تلك الحالة.

أعطيكم مثالاً آخر؛ كان الشّاعر العبّاسيّ " بشّار بن برد " في مجلس أحد الخلفاء، و كان هناك شاعر آخر يلقي قصيدته؛ و عند أحد أبيات القصيدة، سجد " بشار " على الأرض ثمّ اعتدل، فقال له الخليفة : " لماذا سجدت يا بشّار ؟ "، فقال : " نحن معاشر الشّعراء نعرف أماكن السّجود في الشّعر ".

و مرّة كنت في " الجزائر " مع أحد الإخوة المهندسين، و كنّا في مبنى فرنسيّ قديم و جميل و كبير، و إذا بصديقي يتوقّف و يتأمّل في بعض تفاصيل البناء و هو مندهش من إتقان و دقّة و إحكام تلك التّفاصيل و جماليّاتها، فسألته عن سبب اندهاشه و تعجّبه، فصار يشرح لي ذلك حسب ما تعلّمه من علم الهندسة؛ و أنا ما كنت لأعرف ذلك الإبداع لو

لم يشرح لي.

حسنا؛ دعوني هنا أسأل : " لماذا كان مشركو العرب يضعون أصابعهم في آذانهم عندما كان النّبيّ محمّد صلى الله عليه و آله و سلّم يتلو عليهم القرآن لكي يُسلموا ؟ ".

إنّهم لا يريدون سماعه حتى لا يؤثر فيهم إعجازه و بلاغته؛ فيُفتنوا عن عبادة الأصنام.

و يُروى أنّ أناساً قالوا للشّاعر " مجنون ليلى " : " لقد رأينا ليلى التي جننت بها، و شغفت بجمالها، فلم نرَ فيها ما يجنّن و يفتن "، فقال لهم : " أنتم رأيتموها بعيونكم و لم تروها بعينيّ هاتين ".

حتى في عصرنا الحاضر؛ تجد بعض متابعي كرة القدم؛ يُفتنون بهذا اللاّعب أو ذاك، بدعوى أنه يؤدّي مهارات لا يستطيعها غيره، بينما المشاهد العاديّ لا يراه إلاّ شخصاً يركل الكرة و يجري خلفها.

أردت من هذه الأمثلة اليسيرة أن أقول : " إنّ أيّ فنّ أو علم يبدأ ممارسة؛ ثمّ يُصبح تذوّقاً ثمّ عشقا "، و أردت أن أقول أنّ الحواسّ التي وضعها الله عزّ و جلّ في الإنسان؛ تبقى عاطلة و عاجزة إذا لم تدرّب و تمرّن و تمارس مهامها، هذا شيء لا جدال فيه و لا نقاش، و إنّ ما نشاهده اليوم من تدنّي مستوى الإنشاد و هبوطه عمّا كان عليه؛ هو قلّة التذوّق عند معظم الجماهير، فلم يعد له ذلك التّأثير عليهم، و لا عاد يهيّج عواطفهم كما كان يفعل بمن سبقنا، حتى إنّهم لمّا كانوا يحضرون " سماعا "؛ كانوا يسمعون بكلّ جوارحهم، فمنهم من يصيح، و منهم من يقول : " الله "، و منهم من ينثر دراهمه في الهواء و قد شاهدت ذلك بعينيّ، و منهم و منهم.

إنّه التذوّق و التأثّر الذي نفقده في هذه الأيّام.

ـ 46 ـ

ما زلنا نتكلّم عن أسباب تدنّي مستوى الإنشاد.

نضيف إلى ما ذكرنا سابقاً سبباً مهمّا آخر؛ هو عدم اهتمام الجهات الرّسميّة به، إنّما ينصبّ جلّ اهتمامها على الغناء و أهله؛ فيبثون أغانيهم، و يجرون المقابلات معهم، و يغطون حفلاتهم إعلاميّا على الهواء مباشرة، و لذلك انتشروا هذا الإنتشار الواسع، و بلغوا هذه الشهرة العريضة.

كثير من هؤلاء المغنّين و المغنّيات لو استمعت إليهم و هم يغنّون دون موسيقى أو دون مكبّرات صوت أو دون مجموعة صوتيّة أو دون تلك التقنيّات الصّوتيّة المتطوّرة؛ لما وجدت عند أكثرهم أيّ جمال في الصّوت، أو أيّا من المؤهّلات التي كانت عند المطربين القدماء.

كان صوت الواحد منهم كأنه آلة موسيقيّة دون أن تكون معه آلات عزف، و لقد استمعت في حياتي لبعض هؤلاء من مطربين و منشدين و بصوته المجرّد، فإذا انطلق في أدائه لا تريده أن يتوقّف، لشدّة ما تستمتع بذلك الصّوت، فكأنّه الشّهد، أو كأنه السّحر الحلال، فتصبح في حالة من الطرب و النّشوة، و كأنّك تعيش في عوالم سماويّة عليا ليست أرضيّة، حتى أنّ النّبيّ " محمّدا " صلّى الله عليه و آله و سلّم لمّا سمع " أبا موسى الأشعريّ " رضي الله عنه يقرأ القرآن، قال له : " لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داوود ".

و قال " ابن عبّاس " رضي الله عنهما عن معنى قوله تعالى : " يزيد في الخلق ما يشاء " قال : " هو الصّوت الحسن ".

سُئل الموسيقار " محمّد عبد الوهّاب " قديماً عن سبب هبوط مستوى الغناء، فقال : " ظهور الميكروفون "، بمعنى أنّه صار مغنّياً من يصلح للغناء و من لا يصلح، و قبل الميكروفون ما كان يستطيع الغناء و كذلك الإنشاد أو تجويد القرآن إلاّ أصحاب الأصوات القويّة و الجميلة، أمّا في هذا الزمن؛ فيستطيع كلّ واحد أن يقوم بذلك، و خاصّة إذا لمّعه و سانده الإعلام.

سُئل " محمّد عبد الوهّاب " بعد زمن طويل من السّؤال 1 عن سبب تدنّي مستوى الغناء فقال : " ضعف ثقافة الجمهور "، و هذا المعنى تكلّمنا عنه سابقاً و نقصد التّذوّق.

يكفي المطرب أو المنشد - في هذه الأيّام - أن يكون وسيماً كي يشتهر، و يكفي المطربة أن تكون جميلة؛ أو ذات قوام ممشوق كي تتألّق، و قد رأينا في الواقع كيف أنّ الإعلام يجعل من هؤلاء نجوماً ساطعة و أبطالا و بطلات، حتى أنّهم أصبحوا و أصبحن مثالاً و قدوة للنّاس يقتدون بهم و بهنّ.

كلّ ذلك بسبب الإعلام الذي يصيغ أذواق النّاس و مفاهيمهم و يشكّلها كما يحبّ و كما يريد، سواء بوجود موهبة عند المغنّين أو دون موهبة، و لو أتيح الدّعم للمنشدين كما أتيح و يُتاح للمغنّين؛ لتفوّقوا عليهم و حازوا قصب السّبق.

هذا هو الحال؛ و هذا ما يحدث في الواقع، و إنّ المنشدين اليوم ليعملون بجهود فرديّة، و إمكانات متواضعة، فجزاهم الله خيراً و ثبّتهم، و أعانهم على أداء هذه الرّسالة.

هي إعطاء البديل الجيّد الحسن عن الفنّ الهابط الهزيل.

مقاربة آيديولوجيّة : لمزيد من المعلومات حول ميدان الإعلام يُرجى الاطلاع على كتاب " الرّسالة ... بصمات في الإعلام الإنشاديّ الجزء 01 " نسخة خاصّة لجهاز أنسام الصّباح للتربية الفنيّة بالاشتراك مع شبكة المجرّة الإخباريّة، إصدار جانفي 2011، و كتاب " متابعات في الثقافة الإنشاديّة " لجهاز أنسام الصّباح للتربية الفنيّة بالإشتراك مع شبكة المجرّة الإخباريّة، إصدار جوان 2012.

خاتمة

الحمد لله الذي تتمّ بنعمته الصّالحات.

لقد تمّ بحمده الله و بفضل و منّة منه سبحانه وضع هذا الكتاب للشيخ المنشد " محمّد أمين الترمذي "، و الذي تكفّل بجمعها كما أسلفنا الأستاذ "عبد الرّزاق أنفو" المتخصّص و الباحث في علم الإنشاد، تحت تصرّف القرّاء، و قد جاء هذا الكتاب مدعّماً رصيد المنشد متناولاً عديد القضايا و التي - دون ريب - كانت مفيدة جدّا لقارئها من المنشدين.

لقد كانت الرّغبة في بادئ الأمر من الشيخ " الترمذيّ " بأن ينقل من تجاربه و خبراته الفريدة في عالم الإنشاد للناس و للجمهور الواسع و للمقبلين على هذا الفنّ، حيث وجد من مواقع التواصل الإجتماعيّ إلى ذلك سبيلا، ثم ظهرت الحاجة الماسة الملحّة لجمعها بفكرة من الأستاذ و الباحث في علم الإنشاد " عبد الرّزاق أنفو "، و تفضلت الأستاذة " آسيا سعادة " بوضع المقاربة الآيديولوجيّة بين المدرستين؛ فتضافرت الجهود، و ها هي الثّمرة الآن تُقطف ليأكل منها و يتلذذ بها كلّ محبّ متعطّش للنّهوض و للرّقي بهذا الفنّ من جديد، مُقاماً على جذوره؛ و أصوله الطيّبة الحقة المعهودة، و ليثبّت به قدماً في وسط فنيّ أبلغ ما يمكن أن يوصف أو يقال عنه أنه منفلت؛ غير ثابت الرّكائز، لذلك جاءت هذه الصّفحات كما رأيتها نافذة تطلّ عليكم لتؤطّر هذا العمل السّامي الهادف، و لرسم معالم طريق ممهّد و معبّد نحو هذا المقصد النّبيل، ألا و هو " الإنشاد "، الذي لا يمكننا و بأيّة حال أن نستغني عنه كجزء من ثقافتنا و هوّيتنا و حضارتنا.

جويلية 2016



كتاب " المحاولات الأولى " 50 مقالة في الإنشاد

• ما أجمل أن تتحرّك الإرادة في الأطفال !، و ما أروع أن نبث فيهم تلك الرّوح التي تنظر إلى الواقع بتفاؤل !، فينعكس ذلك في مقالات مختلفة المضامين، تخطها أياديهم التي باركها الرحمن، هم لا يدرون أنّهم يعبّرون عن أفكارهم الشخصيّة تجاه قضايا معيّنة، مجرد حركات لا يعون مدى قيمتها في كتابة التاريخ من جهة؛ و لا يدركون أنّهم بأفعالهم البسيطة هذه؛ يفتحون طرقا لغيرهم ... و إذا كان الجمال في تحريك ما يجب أن يتحرّك باكرا في أجيال المستقبل؛ فما أبهى أن تتوسّع هذه الحركة، و يكتب الأطفال للأطفال ... تحت رعاية الكبار !.



كتاب " أوراق من المكتبة الإنشاديّة " 120 مقالة في الإنشاد

• ما زال الأطفال يكتبون للأطفال؛ و ما زال الكبار يرعون كتاباتهم، و لله الحمد و المنّة، هي المحاولات الثانية بتعبير آخر، لكن هذه المرّة ... وفق رؤية مغايرة، تشبه كتاب " السّنابل " إلى درجة معيّنة، فليبارك الله هذا النبات و يسقيه من مائه المقدّس.

أمّا أنت يا طفلي العزيز؛ خُلقت للفعل منذ أمد بعيد؛ فغيّر التاريخ.



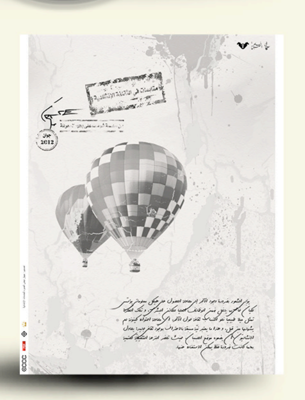
كتاب " التجربة القندسية الجزء 01 "

• يحمل العمل الجمعويّ معنى العطاء، و يأخذ المفهوم الإنسانيّ في بعده الشامل، يعلّمنا أن نحبّ الآخرين و نساعدهم دون أن ننتظر أيّ مقابل منهم، و إذا كان يجوز شرعا إقامة التماثيل؛ فهؤلاء العظماء أولى بكلّ تكريم و تخليد، لقد بدأت خيوط القصّة في الانسجام صيف عام 2012، حين راودتني فكرة إنشاء فرقة إنشاديّة يكون أعضاؤها من الأطفال، لكن في الواقع للقضيّة جذورا أعمق من هذا التاريخ، لقد طرحت المسألة أوّلا على بعض الأصدقاء المقرّبين من جمعيّة " النسيم " للفنون و السّياحة، و أقصد السيّد " رابح . ش " الكاتب العامّ للجمعيّة التي تمّ اعتمادها رسميّا سنة 2010، في إطار التوجّه الجديد للحكومة، و برنامجها الرّامي إلى إعلاء سلطة المجتمع المدنيّ في الجزائر.



كتاب " التجربة القندسية الجزء 02 "

• ما كنت أعرف شيئا في الإنشاد، و ما كان الإنشاد يعني أيّ شيء لي، كنت في العشرينيّات من عمري؛ أحلم بالمال و بالشهرة و بعشيقة شقراء، و حين يناديك الرّبّ أن تعمل من أجله شيئا؛ فإنك ببركته العظمى ستعمل أشياء و أشياء و أشياء، و سيتغير حلمك البسيط من مجرد أوهام أرضيّة؛ إلى ملكوت الرّبّ الذي ناداك، و كلّما حملت هموم الدعوة؛ أرسل الله إليك من يحمل همومك طوعا و قسرا، فسارت إليك الشّهرة حثيثة الخطى كصاحبة الوجه الحسن.



كتاب " متابعات في الثقافة الإنشاديّة "

• يؤدّي الشعور بضرورة وجود الآخر إلى محاولة الحصول على هيكل معلوماتي يؤسّس لكيان خاصّ به، يدخل ضمن الوظائف العليا للكائن البشريّ، و تلك الفكرة تمثل ميلا طبيعيّا نحو اكتساب ثقافة حول الآخر، أي محاولة احتواء كينونة لم يشهدها من قبل، و هذا ما يعتبر نيّة مسبقة بالاعتراف بوجود ثقافي جديد، يحاول الإنشاديّون أن يضعوه موضع الحسبان، حيث تحضر النزعة التثقيفيّة كحتميّة؛ بعدما كانت ضرورة قابلة مع هذا للاستغناء عنها.